سأخون وطني (هذيان في الرعب والحرية)

محمد الماغوط

العرّاف

ما هذا ؟

أمة بكاملها تحل الكلمات المتقاطعة وتتابع المباريات الرياضية، أو تمثيلية السهرة ، والبنادق الإسرائيلية مصوبة إلى جبينها وأرضها وكرامتها وبترولها.

كيف أوقظها من سباتها، وأقنعها بأن أحلام إسرائيل أطول من حدودها بكثير، وان ظهورها أمام الرأي العام العالمي بهذا المظهر الفاتيكاني المسالم لا يعني أن جنوب لبنان هو نهاية المطاف؟

فهي لو أعطيت اليوم جنوب لبنان طوعا واختيارا لطالبت غدا بشمال لبنان لحماية أمنها في جنوب لبنان.

ولو أعطيت كل لبنان لطالبت بتركيا لحماية أمنها في لبنان.

ولو أعطيت تركيا لطالبت ببلغاريا لحماية أمنها في تركيا.

ولو أعطيت أوروبا الشرقية لطالبت بأوروبا الغربية لحماية أمنها في أوروبا الشرقية.

ولو أعطيت القطب الشمالي لطالبت بالقطب الجنوبي لحماية أمنها في القطب الشمالي.

وملأت حقائبي بالخرائط والمستندات والرسوم التوضيحية ويممت شطر الوطن العربي أجوب أرجاءه مدينة مدينة وبيتا بيتا.

وحدثتهم كمؤرخ عن نوايا إسرائيل العدوانية وأطماعها التاريخية في أرضنا وأنهارنا ومياه شربنا. وعرضت عليهم كطوبوغرافي الوثائق والمستندات السرية والعلنية وباللغات العربية والانكليزية والتركية ... ولكن، لا أحد يبالي.

ثم تحدثت إليهم كفنان. وعرضت أمامهم أشهر اللوحات التشكيلية والرسوم الكاريكاتورية التي تصور إسرائيل كمخلب قط للاستعمار، كرأس جسر للإمبريالية، كأفعى تلتف، كعقرب يلسع، كحوت، كتنين، كدراكولا، كريا وسكينة ... تقتل وتفتك وتتآمر ... ولا أحد يبالي.

ثم تحدثت إليهم كخبير طاقة. وحذرتهم من أن منابع النفط هي الهدف التالي لإسرائيل. وأننا، كعرب، قد نعود إلى عصر الحطب في المضارب، ونفخ النار بالشفتين وطرف الجلباب ... ولا أحد يبالي.

ثم تحدثت إليهم كطبيب، عن تسميم الطلاب والطالبات في الضفة الغربية، والجثث المفخخة في مجازر صبرا وشاتيلا. وعن التنكيل المستمر بأهلنا في الأراضي المحتلة، ومصادرة البيوت، وطرد السكان، وتحديد الإقامة، ومنع السفر، ومنع العودة، وإغلاق المدارس، وتغيير المجالس البلدية، وقمع المظاهرات، وإطلاق غاز الأعصاب، والقنابل المسيلة للدموع، والمسيلة للتخلف ... ولا أحد يبالي.

ثم تحدثت إليهم كأب. ونبهتهم إلى أن كل مدرسة في الوطن العربي قد تصبح مدرسة بحر البقر، وكل كاتب أو شاعر قد يصبح كمال ناصر أو غسان كنفاني. وكل رئيس بلدية أو دائرة حكومية قد يعود إلى بيته على عكازين كبسام الشكعة وكريم خلف ... ولا أحد يبالي.

ثم تحدثت إلى الفلاحين كفلاح. وإلى العمال كعامل. وإلى التجار كتاجر. وإلى اليمينيين كيميني. وإلى اليساريين كيساري. وإلى المزايدين كمزايد. وإلى المعتدلين كمعتدل. وإلى العجائز كعجوز. وإلى الأطفال كطفل ... وقلت لهم أن اتفاق شولتز مثله مثل اتفاقيات كامب ديفيد واتفاق سيناء وكل الاتفاقات التي تمت من وراء ظهوركم. فهو مصوغ بدقة متناهية كابتسامة الجوكندا بحث لا أحد يعرف إذا كان يبتسم لنا أم يسخر منا. ولذلك فان دولا عربية متخاصمة لم يكن يتصور أحد أنها يمكن أن تتصالح ... قد تصالحت بسببه. وأن دولا أخرى صديقة لم يكن يتصور أحد أنها قد تختلف، قد اختلفت بسببه ... ولكن للتحركات السياسية حدودا. وللجهود الدولية معايير لا يمكن الإخلال بها. وأن مؤتمر الشعب العربي الدائم وقضيته المركزية فلسطين لا يستطيع أن يستمر في عقد جلساته الطارئة إلى ما لا نهاية ما لم يلق استجابة من هنا أو دعما من هناك.

وان المقاومة الوطنية في لبنان مهما كانت باسلة، لا تستطيع وحدها القضاء عليه ما لم تعمم هذه التجربة في كل بلد عربي.

وقصصت عليهم أحسن القصص عن البطولة والفداء. والروعة في أن يكون الإنسان ثائراً من أجل وطنه ينصب الكمائن ويطارد الأعداء في شعاب الجبال. وفي فترات الاستراحة يضم بندقيته إلى صدره ويقرأ على ضوء القمر الرسائل الواردة إليه من الوطن، إذ في كل صفحة خصلة شعر من خطيبة، أو ورقة يابسة من حبيب.

وقرأت عليهم بنبرة مؤثرة وغاضبة أجمل قصائد المقاومة والنضال، لناظم حكمت ولوركا وهوشي منه ومحمود درويش وسميح القاسم... ولا أحد يبالي.

الكل ينظر إليّ تلك النظرة الحزينة المنكسرة كغصن وينصرف متنهداً إلى عمله.

ماذا أفعل أكثر من ذلك لأثير نخوتهم وغضبهم ومخاوفهم؟

هل أضع على وجهي قناعاً يمثل سنّي بيغن الأماميتين المشوّمتين؟ أم أضع عصابة سوداء على عينّي مثل موشي دايان، وأقفز حول أسرّة الأطفال في ظلام الليل؟

هل أعرض في الساحات العامة صوراً شعاعية لما يعتمر في صدر شارون وبيريز وارينز وايتان وغيرهم من ضغينة وحقد على هذه الأمة وما يبيتون لها ولشعوبها من قهر وذل وجوع ودمار؟

هل فقدت الشعوب العربية إحساسها بالأرض والحرية والكرامة والانتماء إلى هذه الدرجة؟
أم أن الإرهاب العربي قد قهرها وجوّعها وروّعها وشرّدها سلفا أكثر بكثير مما فعلته وما قد تفعله إسرائيل في المستقبل؟

طوق الحمامة

هل يمكن يا حبيبتي أن يقتلني هؤلاء العرب إذا عرفوا في يوم من الأيام أنني لا أحب إلا الشعر والموسيقى، ولا أتأمل إلا القمر والغيوم الهاربة في كل اتجاه.

أو أنني كلما استمعت إلى السيمفونية التاسعة لبتهوفن أخرج حافياً إلى الطرقات وأعانق المارة ودموع الفرح تفيض من عيني.

أو أنني كلما قرأت "المركب السكران" لرامبو، اندفع لألقي بكل ما على مائدتي من طعام، وما في خزانتي من ثياب، وما في جيوبي من نقود وأوراق ثبوتية من النافذة.

نعم فكل شيء ممكن ومحتمل ومتوقع من المحيط إلى الخليج، بل منذ رأيتهم يغدقون الرصاص بلا حساب بين عيني غزال متوسط أدركت أنهم لا يتورعون عن أي شيء.

ولكن من أين لهم أن يعرفوا عني مثل هذه الأهواء، وأنا منذ الخمسينات لا أحب الشعر أو الموسيقى أو السحب أو القمر أو الوطن أو الحرية إلا متلصصاً آخر الليل، وبعد أن أغلق الأبواب والنوافذ وأتأكد من أن كل المسؤولين العرب من المحيط غلى الخليج قد أووا إلى أسرتهم وأخلدوا للنوم.

ولكن إذا صدف وعرفوا ذلك بطريقة أو بأخرى فأكدي لهم يا حبيبتي بأن كل ما سمعوه عني بهذا الخصوص هو محض افتراء وإشاعات مغرضة، وأنني لا أسمع إلا نشرات الأخبار، ولا اقرأ إلا البلاغات الرسمية.

ولا أركض في الشوارع إلا للحاق بمركب التطور.

وإنني اقتنع دائماً بما لا يقنع وأصدق ما لا يصدق، ولا أعتبر نفسي أكثر من قدمين على رصيف أو رصيف تحت قدمين.

وإذا ما سألوك: أين أذهب أحياناً عند المساء فقولي لهم: إنني أعطي دروساً خصوصية في الوطن العربي في توعية اليائسين والمضللين.
وإذا ما بدوت يائساً في بعض الأحيان، فأكدي لهم أنه يأس إيجابي، وإذا ما أقدمت على الانتحار قريباً فلكي ترتفع روحي المعنوية إلى السماء.

وإنني لا أعتبر أن هناك خطراً على الإنسان العربي والوطن العربي سوى إسرائيل، وتلك الحفنة من المثقفين و المنظرين العرب الذين ما فتئوا منذ سنين يحاولون إقناعنا في المقاهي والبارات والندوات والمؤتمرات بأن معركتنا مع العدو هي معركة حضارية وكأنهم ينتظرون من قادته وجنرالاته أن يجلسوا صفاً واحداً على كراسيهم الهزازة على الحدود مقابل صف من الكتاب والشعراء والفنانين العرب ليبارزوهم قصيدة بقصيدة ومسرحية بمسرحية ولوحة بلوحة وسيمفونية بسيمفونية وأغنية بأغنية ومسلسلاً بمسلسل.

لا يا حبيبتي، اركبي أول طائرة واجتمعي بكل من يعنيهم هذا الأمر في الوطن العربي، وحذريهم من الوقوع في مثل هذا الشرك، أو مثل هذه الدوامة، فصراعنا مع العدو واضح كل الوضوح في مقولة عبد الناصر الشهيرة: " ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة" . والصراع المحتدم الآن بين أكبر دولتين في العالم وأكثرهما غنى بالشعراء والكتاب والفنانين، ألا وهما روسيا وأمريكا حول سباق التسلح إلا الدليل القاطع على صحة هذه المقولة.

ولذلك فأنا ككل عربي، مستضعف ومستهدف من جميع الجهات، أتابع هذا السباق باهتمام بالغ، وأتابع بنفس الاهتمام كل ما يطرأ على عالم الأسلحة من تطور في الشكل والمضمون والفعالية. وان كان ما يزال للدبابة بالنسبة لي ولجيل الخمسينات برمته مكانة خاصة في نفوسنا ولا نستطيع بمجرد أن ظهرت أسلحة جديدة أكثر رشاقة وفعالية منها أن ننساها بكل هذه البساطة، فبيننا وبينها عشرة عمر.

وإذا كانت الدول الأقل غنى منا قد وفرت لكل مواطن دبابة واحدة على الأقل. فحريّ بنا نحن العرب، وقد وهبنا الله تلك الثروات والموارد التي لا تنضب، أن يصبح لكل مواطن عربي في المستقبل لا دبابة واحدة بل خمس دبابات على الأقل:
واحدة إلى يمينه.
وواحدة إلى يساره.
وواحدة أمامه.
وواحدة وراءه.
وواحدة فوقه.
وبذلك يرتاح ويريح.

المبتدأ والخبر

بعد أن أتى الجراد السياسي في الوطن العربي على الحاضر والمستقبل، يبدو أنه الآن قد التفت إلى الماضي، وذلك حتى لا يجد الإنسان العربي ما يسند ظهره إليه في مواجهة الأخطار المحيطة به سوى مسند الكرسي الذي يجلس عليه، بدليل هذا الحنو المفاجئ على لغتنا العربية، وهذه المناحة اليومية في معظم صحف وإذاعات المنطقة، على ما أصاب قواعدها من تخريب وما يتعرض له صرفها ونحوها من عبث واستهتار، حتى لم يعد احدنا يعرف كيف يقرأ رسالة أو يدوّن رقم هاتف.

ومع احترامنا لكل حرف في لغتنا، ومع تقديرنا لجميع ظروف الزمان والمكان في كل جملة ومرحلة في الوطن العربي لا بد أن نسأل:

ما الفائدة من الاسم إذا كان صحيحا... والوطن نفسه معتلاً؟

أو إذا كانت هذه الجملة أو تلك مبنية على الضم أو الفتح ... والمستوطنات الإسرائيلية مبنية أمام أعيننا على جثث التلاميذ والمدرسين الفلسطينيين.

ثم، لم وجدت اللغة أصلاً في تاريخ أي أمة؟ أليس من أجل الحوار والتفاهم بين أفرادها وجماعاتها؟

فأين مثل هذا الحوار الآن فيما بيننا؟

هل هناك حوار مثلا بين التاجر والزبون؟

بين العامل ورب العمل؟

بين المالك والمستأجر؟

بين الراكب والسائق؟

بين المحقق والمتهم؟

بين الابن والأب؟

أو بين الزوج والزوجة؟

أيضاً لم تعد هناك حاجة لأن تسأل عن أي شيء، أو تجيب على أي شيء. فالأسعار، مثلا في السينما، مكتوبة في كل بطاقة، وفي المستشفى، فوق كل سرير. وفي المطعم، في كل فاتورة، وكل ما حول المواطن العربي أصبح سعره واضحاً ومعروفاً ومكتوباً على جميع جوانبه، من الألبسة والأحذية والفاكهة والخضروات والبيوت والبارات والمزارع والعقارات إلى الرياضيين والمطربين والكتاب والصحفيين. ولم يبق إلا أن يكتب على الشعوب سعرها ومنشؤها ومدى صلاحيتها للاستعمال.

والأهم من كل هذا وذاك: هل هناك حوار بين السلطة والشعب في أي زمان ومكان في هذا الشرق؟

فأي مسؤول انكليزي، مثلاُ، عندما يختلف في الرأي مع أي كان في محاضرة أو مناقشة في بلده يأتي بحجة من شكسبير لإقناع مستمعيه.

والايطالي يأتي بحجة من دانتي.

والفرنسي يأتي بحجة من فولتير.

والألماني يأتي بحجة من نيتشة.

أما أي مسؤول عربي فلو اختلف معه حول عنوان قصيدة لأتاك بدبابة فتفضل وناقشها.

ولذا صار فم الإنسان العربي مجرد قنّ لإيواء اللسان والأسنان لا أكثر. وفي مثل هذه الأحوال:

ماذا يفعل حرف الجر المسكين أمام حاملة طائرات مثلاً؟

أو الفتحة والضمة أمام مدفع مرتد يتسع لمجمع لغوي؟

وما دام الحوار الوحيد المسموح به في معظم أرجاء الوطن العربي هو حوار العين والمخرز فلن ترتفع إلا الأسعار.

ولن تنصب إلا المشانق.

ولن تضم إلا الأراضي المحتلة.

ولن تجر إلا الشعوب.

لذلك كلما قرأت أو سمعت هذا أو ذاك من الشعراء والصحافيين أو المذيعين العرب "يجعجع" عن الديمقراطية والعدالة والحرية، وينتصر على الصهيونية ويقضي على التخلف، ويتوعد هذا ويهدد ذاك، وهو جالس في مقهاه، أو وراء مذياعه، لا أتمنى سوى تأميم اللغة العربية من المحيط إلى الخليج وتكويمها في بيدر أو ساحة عامة في قلب الوطن العربي، وتكليف موظف مختص وراء أذنه قلم وأمامه سجل بجميع الكتاب والشعراء والأدباء العرب وينادي عليهم بأسمائهم ويسألهم فرداً فرداً:

– أنت أيها الشاعر التقليدي كم كلمة من أمثال: رماح، رمال، جراح، بطاح، تريد؟ تفضل مع السلامة.

– وأنت أيها الشاعر الحديث، كم كلمة من أمثال: تجاوز، تخطي إبداع، تأنس، تريد؟ تفضل مع السلامة.

– وأنت أيها المذيع العصبي، كم كلمة من أمثال: " في الواقع "، " في الحقيقة "، و"جدلية" ، و"شمولية"، و" نظرة موضوعية " و" قفزة نوعية " ، تريد؟ تفضل مع ألف سلامة.

– وأنت أيها المناضل والمتطرف والمتفرغ لكل محاضرة وندوة ومناسبة، كم كلمة من أمثال: دم، دماء، استعمار، امبريالية، شعوب، "وحدة الشعوب "، " وحدة المصير "، كوبا، نيكاراغوا، وكم مناقصة فوقها تريد؟ تفضل ومع ألف سلامة.

الأجنحة

الأغنياء والفقراء، القضاة والمتهمون، الحراس واللصوص والمخمورون، كلهم يقولون لي: ماذا تفعل في هذا الوطن بعد أن ابيضّ شعرك تحت سمائه وانحنى ظهرك فوق أرصفته، ماذا تنتظر منه بعد أن تحدد فيه مستقبلك ومستقبل غيرك في السياسة، كما تحدد مستقبل محمد أمين في الفن؟ سافر إلى بلاد الله الواسعة، فقد لا تجد وقتاً في المستقبل لشراء حقيبة. وقد لا تجد يداً أو إصبعاً في يدك لحمل تلك الحقيبة. وكلما عدت إلى بيتي في آخر الليل أجد على عتبته جواز السفر وتأشيرة الخروج ودفتر الصحة وبطاقة الطائرة وحبوب الدوخة.

وأحزم حقائبي وأسافر. في الذهاب أتمنى أن يكون مقعدي في غرفة القيادة على ركبة الطيار أو المضيفة لأبتعد بأقصى سرعة عن هذا الوطن. وفي الإياب أتمنى أن يكون مقعدي في مقدمة الطائرة على غطاء المحرك لأعود بأقصى سرعة إلى هذا الوطن.

آخر مرة كانت إلى تونس. أربعة آلاف كيلومتر فوق البحار والقارات وأنا أحدق من نافذة الطائرة كما يحدق اليتيم في واجهات الحوانيت في الأعياد، كانت الغيوم هاربة من العرب، الأمواج هاربة من العرب، الأسماك هاربة من العرب، التلوث هاربا من العرب، العروبة هاربة من العرب. وبعد أسبوع كنت أهرول عائدا إليهم وحزام الأمان ما زال حول خصري.

وسألتني زوجتي بدهشة: ما الذي عاد بك بهذه السرعة؟ ألم تعجبك تونس؟

قلت: إنها الجنة بعينيها، شمس وبحر وغابات.

قالت: وماذا تريد أكثر من ذلك؟

قلت: بصراحة، بلد لا يوجد فيه مشاكل لا أستطيع العيش فيه.

قلت: مستغربة: مشاكل!

قلت: نعم. بلد بدون أزمة سكن، أزمة مواصلات، أزمة غاز، وبدون شائعات ... لا فلان طار ولا فلان راح، لا أستطيع أن أقيم فيه أكثر من أسبوع. كما أنني بدون دخان مهرب ودعوسة رجلين في الباصات، ومسؤولين يخالفون شارات المرور، وشاحنات صاعدة هابطة وقت القيلولة تصب جهود الجماهير في أساس بناية أو شاليه لهؤلاء المسؤولين، وكل نشرة والثانية يا جماهير شعبنا، وفي هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ أمتنا، لا أشعر بأنني في بلدي وبين أهلي وأحبابي كما يقولون في كلماتهم الترحيبية. كل شيء عندهم في تونس هادئ كمراكز الامتحانات، وكل شيء واضح ومحدد حسب النظام والقانون، ولذلك فقدت

أعصابي وصرت كالخليجي الذي اعتاد النوم طوال حياته على صوت المكيف. فما أن يتوقف عن العمل حتى يستيقظ ولا يعرف كيف ينام حتى يعود إلى العمل والهدير من جديد.

ثم أنني أحب هذا الوطن من محيطه إلى خليجه. فأينما كنت، ما أن اقرأ اسمه في جريدة، أو اسمعه في إذاعة حتى أتجمد كنهر سيبيري، كعريف في حضرة جنرال، إنني أحبه، قدروا ظروفي وعواطفي.

فيه قرأت أول قصة لياسين رفاعية، وسمعت أول أغنية لفهد بلان، وقرأت أول افتتاحية ترد على كل المخططات الأجنبية في المنطقة، تبدأ ببيت للفرزدق وتنتهي ببيتين للأصمعي. فيه سمعت لأول مرة اسم: قضية فلسطين، عائدون، حرب التحرير الشعبية، حرف الاستنزاف، الكيلومتر 101، مرسيدس 220 امبريالية، استعمار انسبستر، ديبون، فيزون، بيار كاردان، جنرال إلكتريك، جنرال سيلاسفيو؟

وصرخت زوجتي بحدة: مشكلتك أنك تسخر من كل شيء في هذه المنطقة.

فقلت لها: بالعكس، مشكلتي أنني احترم كل شيء فيها حتى قمامتها، بدليل، وأنا عائد في آخر الليل سقط عليّ كيس قمامة، فلم أحتج. ولم أنفضها حتى عن رأسي وثيابي، لأنني من طريقة سقوطها عليّ عرفت أنها زبالة مدعومة.

قالت: حالتك خطيرة جدا. عليك بمراجعة طبيب.

قلت: إن الدكتور كيسنجر لن يحل مشكلتي، وتصوري أيضاً ... صرت أبكي في أفلام حسن الامام، وأفرقع بأصابعي في حفلات سميرة توفيق.

قالت: كم يؤلمني أن أرى شاعراً مثلك لا يجد ما يتحدث به في أواخر عمره غير حسن الإمام وسميرة توفيق وأكياس القمامة. هل نسيت الشعر؟

قلت: الشعر! كأنك تذكرينني بطفل فقدته ولا أعرف قبرا له.

قالت: هل تثق بي؟

قلت: كثقتي بكرايسكي.

قالت: أيا كان رأيك فأنت في حالة يرثى لها أيها العجوز الصغير. وعلاجك الوحيد هو الشعر. السفر الروحي على أجنحة الحلم والخيال.

فقلت: ولكن كيف؟ وإلى أين؟

ولما كانت زوجتي بطبيعتها حالمة وخيالية، فسرعان ما فتحت النافذة وحدقت في الأفق البعيد وقالت: الآن وليس غداً. انزع من رأسك كل السفاسف السياسية والمنغصات اليومية وتعال معي لنطر على أجنحة الحلم

والخيال إلى العوالم التي سبقنا إليها رامبو وفيرلين وهايني وشلر ولوركا، لنطر بعيدا في عالم السحر والجمال حيث السماء الزرقاء والأمواج الحالمة والغابات العذراء.

فقلت لها: حبيبتي، إذا ما استمرت الأمور في المنطقة على هذا المنوال. تبادل شتائم ومؤتمرات وخطابات. فلن نطير أنا وأنت وغيرنا في نهاية الأمر إلا إلى كامب ديفيد.

ساعة المســــتقبل

بعد ثلاثين سنة من الثقة المتبادلة بين المواطن العربي وأجهزة الإعلام العربية، نعلم أنه عندما تركز الأجهزة على قضية ما وترعاها فجأة بكل ما عندها من صحف ومجلات وخطب ومهرجانات ومطربين ومطربات، فمعنى ذلك أن نقرأ الفاتحة قريباً على هذه القضية.

أنا مثلا: دون تردد أو مناقشة، ما أن تركز مثل هذه الأجهزة على قضية الحرية فجأة حتى أجهز "شحاطتي" وبيجاماتي وأحلق شعري على الصفر سلفا.
وعندما تركز على موضوع الاشتراكية، أسارع على الفور وأتفقد برادي صحناً صحناً وبيضة بيضة، لأن معنى ذلك أن الناس ستأكل بعضها عما قريب.
وعندما تركز على موضوع النصر والتحرير واستعادة الأماكن المقدسة، أضب الحقائب واستعد للمبيت قريبا أنا وعائلتي تحت أحد الجسور في الفاتيكان، لأن معنى ذلك أن قطعة أخرى من الأرض العربية ستطير.

والآن تركز هذه الأجهزة في مشرق الوطن العربي ومغربه فجأة وبعد خراب البصرة على موضوع الوحدة العربية بحجة أنها الرد الحاسم على ما تطرحه الامبريالية الأمريكية في المنطقة من مشاريع جديدة للتجزئة والتقسيم. ومعنى ذلك أن عدد الدول العربية سيرتفع من **22** إلى **42** دولة. أي بعدد الولايات الأمريكية تقريباً.

ماذا فعل المواطن العربي لحكامه خلال الثلاثين سنة حتى يعامل هذه المعاملة؟
أعطاهم أولاده للحروب.
وعجائزه للدعاء.
ونساءه للزغاريد.
وكساءه لليافطات.
ولقمته للمآدب والمؤتمرات.
وشرفاته وموطئ قدميه للمهرجانات والخطابات.
وطلب منهم نوعاً واحداً من الحرية، وهو النوع المتعارف عليه في أبسط الدول المتحضرة. فأعطوه عشرين نوعا من الحرية لا يوجد لها مثيل لا في الدول المتحضرة ولا في الدول المتوحشة.

وطلب منهم نوعاً واحداً من الاشتراكية، وهو النوع المعمول به في معظم الدول الاشتراكية. فأعطوه خمسين نوعا من الاشتراكية إلا النوع المعمول به في الدول الاشتراكية.

أعطاهم سبع دول عام 1949، لتوحيدها. فأعطوه بعد ثلاثين سنة 22 دولة لا يستطيع 22 بسمارك أن يوحد أنظمة السير فيها.

ومنذ ثلاثين سنة أيضاً أعطاهم قضية ظريفة خفيفة كالفلة، تتمنى معظم الدول والشعوب في ذلك الحين أن يكون عندها قضية مثلها. وهي قضية فلسطين. فأعطوه بالإضافة إليها:

قضية لومومبا.

وقضية المالكي.

وقضية فرج الله الحلو.

وفضية الشوّاف.

وقضية البرازاني.

وقضية بن بركة.

وقضية بن بللا.

وقضية بن عاشور.

وقضية عبد الحكيم عامر.

وقضية برلنتي عبد الحميد.

وقضية علي صبري.

وقضية خزنة عبد الناصر.

وقضية موسى الصدر.

وقضية جنبلاط.

وقضية سعد حداد.

وقضية أحمد الخطيب.

وقضية الخميني.

وأخيراً قضية السادات.

فماذا يتحمّل هذا الإنسان ليتحمّل؟

بمعنى أن ينام المواطن العربي على هم قديم. هذا لا يجوز. وأمر لا ترضاه لا أنظمة الحكم العربية، ولا دول عدم الانحياز، ولا منظمة الوحدة الآسيوية الإفريقية، ولا منظمة الصحة العالمية.

المفروض كل يوم جديد، هم جديد.

وأن يعود المواطن إلى بيته في المساء وهو لا يحمل لعائلته وأطفاله أكلة جديدة أو ثياباً جديدة، بل قضية جديدة.

وتقول إعلانات الدعاية أن ساعة أوريس التي تتحمل الصدمات هي ساعة المستقبل. قسماً بالله ألف ساعة أوريس لا تتحمل في ثلاث سنوات الصدمات التي يتحمّلها المواطن العربي في ثلاث دقائق – ولذلك كل ما

يلزمه هو قشاط جلد من عند الرأس والقدمين ليلفّه الطيارون ورجال الأعمال حول معاصمهم، باعتباره هو لا أحد سواه ساعة المستقبل.

سيداتي سادتي

مواطن عربي ينقل إبرة الراديو من محطة إلى محطة ويقلّق على ما يسمعه من أغان وبرامج وأخبار وتعليقات، من الصباح الباكر حتى نهاية الإرسال في الوطن العربي.

إذاعة رقم **1** : عزيزي المستمع، في نزهتنا الصباحية كل يوم تعال معنا إلى ربوع الوطن الحبيب حيث لا شيء سوى الحب والجمال.

المستمع: والتخلف.

إذاعة رقم **2**: أغنية لفيروز "جايي، أنا جايي .... جايي لعندك جايي".

المتسمع: يا فتّاح يا رزّاق، إنها حتماً فاتورة الماء أو الكهرباء أو الهاتف.

إذاعة رقم **3**: عزيزي المستمع مع الورود والرياحين والنرجس والنسرين والفل والياسمين.

المستمع: أي فل وأي ياسمين. والله لو مات أحد أصدقائي في هذا الغلاء الفاحش فلن أستطيع أن أقدم له إلا إكليلاً من الخطابات.

إذاعة رقم **4**: قصيدة اليوم: وللحرية الحمراء باب.

المستمع: بكل يد قابضة يدق.

إذاعة رقم **5**: وإننا نعلن من هنا أن لا شروط لنا أبداً على تحقيق الوحدة العربية.

المستمع: باستثناء شرط واحد هو أننا لا نريدها.

إذاعة رقم **6**: حكمة اليوم، قل كلمتك وامش.

المستمع: إلى البنك.

إذاعة رقم **7**: إن المجلس الأعلى لشركات الطيران العربية يحذر في مؤتمره المارقين والعابثين بقضايانا المصيرية ويضع كافة إمكاناته وطاقاته في خدمة المعركة.

المستمع: بما أن الأمور قد وصلت إلى شركات الطيران فمعنى ذلك أن القضية "طايرة قريباً".

إذاعة رقم 8: أغنية "حلم لاح لعين الساهر".

المستمع: عودة الحياة الطبيعية إلى لبنان.

إذاعة رقم 9: من أنبائنا الرياضية خرج الجواد العربي "نور الصباح" من الداربي الانكليزي بعد الشوط الأول بسبب إهمال الجوكي وسقوطه عنه.

المستمع: طبعاً لأن العرب لا يعرفون أن يخيّلوا إلا على بعضهم.

إذاعة رقم 10: وإن الاتحاد النسائي العام في الوطن العربي يدعو كافة أعضائه المنتسبات ...

المستمع: .... إلى ترك أطفالهن دون رضاعة، وأزواجهن دون طعام، وبيوتهن دون ترتيب ومطابخهن دون جلي والتفرّغ لحلّ مسؤولياتهن وفضح المؤامرات التي تحاك ضد قضيتنا وأمتنا، وكل فرع لا يتقيد بهذه التعليمات يغلق وتختم جميع مكاتبه "بالشكلس الأحمر" .

إذاعة رقم 11: وكما قلنا وأكدنا مراراً نعلن أمام العالم أجمع أنه:

لا صلح

لا اعتراف

لا مفاوضات

المستمع: لا تكذبي. إني رأيتكما معا.

إذاعة رقم 12: وأننا نؤكد أيضاً من هنا ولجميع شعوبنا العربية والإسلامية أننا لن نذهب إلى مؤتمر ولن ننسحب من جلسة ولن نتهاون في قضية ولن نساوم على حق ولن نتردد في مساعدة ولن نتراجع عن موقف ولن نفاوض ولن نصالح ولن نقرر إلا ما تمليه إرادة الشعوب.

المستمع: والشعوب في السجون.

إذاعة رقم 13: أغنية " دايماً وراك دايماً أتبع خطاك دايماً ".

المستمع: معروفة المواطن والمخابرات.

إذاعة رقم 14: وبعد أن شرح سعادته لسفراء الدول الغربية الظروف الخطيرة التي تمر بها المنقطة، أعطاهم مهلة شهرين للعودة بأجوبة واضحة من حكوماتهم، وذلك قبل بدء حملة الانتخابات الأمريكية وانشغال العالم بها، لأن العرب مصممين أكثر من أي وقت مضى على صوم رمضان القادم في القدس والصلاة في عكا والوضوء في مياه نهر الأردن.

ثم استقل سعادته الطائرة في رحلة استجمام إلى أوروبا تستمر...

المستمع: إلى ما بعد الانتخابات الأمريكية.

إذاعة رقم 15: وإننا في هذه الظروف المصيرية نحث جميع القادة والمسؤولين العرب على الالتزام بقرارات جميع القمم العربية دون استثناء: قمة الخرطوم وقمة الرباط وقمة بغداد وقمة فاس الأولى والثانية.

المستمع: عجيب، كل هذه القمم وما زلنا في الحضيض.

إذاعة رقم 16: والآن سيداتي سادتي، ومع اقترابنا من ركن المنزل تنضم جميع موجاتنا العاملة...

المستمع: إلى جبهة الصمود والكفاح العربي ... ونقدم لكم طبخة اليوم.

إذاعة رقم 17: إن طريقنا إلى فلسطين لا بد أن تمر من بيروت.

المستمع: .... ومن جونيه.

إذاعة رقم 18: ومن موسكو.

إذاعة رقم 19: ومن واشنطن.

المستمع: من كثرة الطرق التي أصبحت تؤدي إلى فلسطين صارت القضية في حاجة إلى إدارة مرور.

المذيع : اخرس.

إذاعة رقم 20: فيروز تغني أنا وشادي ... تربينا سوا ... راح شادي ... ضاع شادي ...

المستمع: بس شادي؟

المذيعون العرب: اخرس.

المستمع: لن أخرس.

المذيعون العرب: ستخرس رغماً عن أنفك . (وتمتد مئات الأيدي من الراديو وتنهال عليك ضرباً وصفعاً): كلب، جاسوس، حقير، طابور خامس ... الخ...

إذاعة رقم 21: نأسف لهذا الخلل الفني، وسنعود إليكم فور إصلاحه.

إذاعة إسرائيل: لا ... لا ... خذوا راحتكم.

اللوحة المسمارية

صوت: ألو ... مقهى النخبة، هنا نيويورك. أريد أيوب العربي.

أيوب: هو الذي يتكلم.

الصوت: أنا الدكتور جافييه بيريز دي كويلار. الم تعرفني؟

أيوب: مع الأسف.

الصوت: ولو، أنا الأمين العام الجديد للأمم المتحدة. ما هذا؟ تكاد تنتهي مدة ولايتي ولم تعرفني أو تحفظ اسمي؟

أيوب: بسيطة يا سيدي، فنصف الوزراء الذين يتحدثون باسمي وبيدهم لقمتي ومصيري لا أعرف أسماءهم، وبعضهم لا أسمع به إلا عند تشكيل الوزارة. على كل حال، أهلاً وسهلا، أية خدمة؟

الصوت: تعرف أن الاستعدادات بذكرى الإعلان عن حقوق الإنسان قد بدأت.

أيوب: أي إنسان! الإنسان الآلي؟

الصوت: لا. لا. الإنسان العادي الذي من لحم ودم ومشاعر. الإنسان الذي يزرع لنأكل، ويغزل لنلبس ويموت لنحيا.

أيوب: وما علاقتي أنا بهذا الموضوع؟

الصوت: إن الأمم المتحدة معنية هذا العام بإقامة احتفالها السنوي بهذه المناسبة في إحدى دول العالم الثالث.

أيوب: ألم تجدوا سوى دول العالم الثالث مكانا للاحتفال بحقوق الإنسان؟

الصوت: لا. لأن هذه الحقوق في تلك البلاد وخلافاً للتقارير ما زالت موضع شك. ولهذا وجّهت الدعوة إلى كبار الكتاب والفنانين والتكنوقراطيين للمساهمة في هذا الاحتفال ليأتي فيلماً وثائقياً وشهادة حية أقف من خلالها على واقع هذا الإنسان وطموحاته، وعلى العوامل التي تجعل وتيرة نموه أقل بكثير من طاقاته وإمكاناته. وأريدك أن تشرف عليه شخصياً من حيث استقبال المدعوين وملاطفتهم، وترتيب أماكن جلوسهم، ومراجعة كلماتهم. إنني أعتمد كثيراً على خبرتك وحكمتك في نجاح هذا الاحتفال.

أيوب: ولكنني تركت الأدب والسياسة منذ زمن بعيد.

الصوت: هذا ليس موضوعاً سياسياً أو أدبياً، إنه موضوع إنساني . هل تخليت عن إنسانيتك أيضاً؟

أيوب: لا. ولكنك فاجأتني بمهمة خطيرة ليس عندي أي استعداد نفسي أو معنوي للاضطلاع بها. ليس عندي حتى الثياب اللائقة لأظهر بها في هذه المناسبة.

الصوت: سترتدي ثياب الأمم المتحدة.

أيوب: حسناً . وزمان ومكان الاحتفال؟

الصوت: كل هذه المعلومات ستصلك برقياً في حينه.

أيوب: والتعويضات!

الصوت: ستكون مغرية وبعملة البلد المضيف.

أيوب: لا أنا يساري ولا أقبض إلا بالدولار.

الصوت: وكيف صرت يسارياً بين ليلة وضحاها؟

أيوب: كما صار الأستاذ محمد حسنين هيكل. هل هو أحسن من غيره؟

الصوت: جهّز نفسك للسفر فوراً.

* * * *

أيوب: وما أن وصلت إلى مكان الاحتفال حتى هرع كبير الموظفين المكلّف بمرافقتي للاطلاع على كافة الإجراءات المتخذة، يشرح لي الآمال المعلّقة على هذا الاحتفال وسط بحر من الوفود والصحفيين والمصورين والمراسلين الذين تقاطروا من جميع أرجاء آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية: هذا يعبئ غليونه، وذلك يشعل سيجاره، والذي يراجع كلمته، والذي يختصر منها، أو يضيف عليها، وضحكات من هنا وتعليقات من هناك. وما أن بلغت القاعة المخصصة للاحتفال حتى صرخت بمرافقي: ما هذه الفوضى؟ من سمح لهم بالجلوس بهذا الترتيب العشوائي؟

المرافق: لقد اختار كل وفد مكاناً وجلس فيه وليس عندي أية سلطة تحول دون ذلك.

أيوب: أما أنا فعندي مثل هذه السلطة. ثم من هؤلاء الذين يجلسون في الصف الأول ويلفون ساقاً على ساق بكل هذه العظمة؟

المرافق: وفود من الدول العربية.

أيوب: وماذا جاؤوا يفعلون بهذه المناسبة؟ من وجّه إليهم الدعوة؟ ما من مؤتمر أو مهرجان في مناسبة حقوق الإنسان، أو حقوق الملاحة، أو حتى حقوق الفقمة.. إلا وتراهم جاهزين بكلماتهم وتوصياتهم وبرقيات تأييدهم واستنكاراتهم. يا إلهي. هل ينامون بثيابهم في المطارات؟ أخرجهم حالا من القاعة كلها، بل حتى لو وجدت في هذا المبنى ولو "تواليت عربي" سأقدم استقالتي وأنسحب.

المرافق: ألا يمكن أن نسمح لهم بالبقاء ولو كمراقبين؟

أيوب: مراقبين على ماذا؟ على حقوق الإنسان؟ هل أنت أجدب؟ هل يؤتمن الثعلب على الدجاج؟ هيّا ... ليغادروا المكان، ولتقف جميع الوفود في الزاوية ريثما أعيد ترتيب الجلوس حسب هذه اللائحة التي أعددتها بنفسي. فهناك أصول ومقامات يجب أن تراعى في مثل هذه الأحوال.

المرافق: وهذه لائحة يا سيدي بأهم البحوث والموضوعات التي ستلقى في الاحتفال. هل أتلوها عليك؟

أيوب: طبعاً، وبسرعة.

المرافق: كلمة الافتتاحية سيلقيها الدكتور خوريا موريا من الأرجنتين عن الجذور التاريخية لحقوق الإنسان عند جان جاك روسو. ثم يعقب عليه الدكتور غوهو موهو من أفريقيا الوسطى بمقولة ديمومة الإنسان لهيغل.

أيوب: عظيم ولكن أسرع.

المرافق: ثم هناك التكنولوجيا ومستقبل الإنسان.

الأسطورة وخيال الإنسان.

الميثولوجيا وطقوس الإنسان.

فولتير وروح الإنسان.

بيكاسو وضمير الإنسان.

بريجينسكي وجسد الإنسان.

شوبان وشفافية الإنسان.

ثم بيتهوفن وعظمة الإنسان. والحركة الرابعة من السيمفونية الثالثة وقدر الإنسان.

ثم آسيا تنهض.

أمريكا اللاتينية تتمخض.

أفريقيا تتحفز.

أيوب: عظيم . عظيم . والآن، يجب أن يكون ترتيب الجلوس على الشكل التالي:

في الصف الأول: يجلس الحدادون والنجارون والسباكون والمقاولون والمهربون وأصحاب الملاهي والكباريهات.

المرافق: سيدي. ما هذا؟

أيوب: لا أريد مناقشة أو اعتراضا من أحد فهذا الترتيب نهائي. وجاء نتيجة دراسة ميدانية في معظم أرجاء العالم الثالث. ثم، لو لم أكن موضع ثقة سيادة الأمين العام للأمم المتحدة لما كلفني بهذه المهمة، وأرجو عدم مقاطعتي بعد الآن.

يليهم في الصف الثاني: أصحاب البنوك وتجار العقارات والموبيليا والمفروشات.

يليهم: السفراء والقناصل ورؤساء البعثات الأجنبية.

يليهم: القضاة والأطباء والمحامون والمهندسون.

يليهم: الطلاب والمدرسون والمقررون والمفتشون.

يليهم: العمال والفلاحون والحراس والليليون.

يليهم: الحمالون وماسحو الأحذية والباعة المتجولون.

يليهم: النشالون والجانحون وأرباب السوابق.

وأخيراً، يليهم: الكتاب والصحفيون وأرباب القلم.

ثم: ليوضع في مقدمة الجميع بوط عسكري.

واحتفلوا وناقشوا بعد ذلك حتى يورق الصوان.

الحديقة قرب الغابة

أجمل شعارات هذه الأمة وأعرقها. بل ثوب زفافها الأبيض. ماذا حل بها؟ ماذا بقي منها غير الأزرار الصدئة والأكمام المتهدلة والجيوب الفارغة؟

شعارات نقية يطلقها أناس أنقياء وبلمح البصر تصبح كثياب عمال الدباغة مع أن الكل يدعي النظافة وتعقيم اليدين.

معاهد جامعات مخابر تكنولوجيا، ومع ذلك حكمة قيلت قبل أربعين قرناً على ظهر بعير تحكمنا وتسيطر على أفعالنا ونحن على متن الجامبو أو الكارافيل وعلى ارتفاع أربعين ألف قدم عن سطح الأرض.

ما أذرب ألسنتنا في إطلاق الشعارات. وما ارشق أيدينا في التصفيق لها، وما أعظم جلدنا في انتظار ثمارها، ومع ذلك فان منظر ثائر عربي يتحدث عن آلام شعبه للصحفيين وهو يداعب كلبه الخارج لتوه من الحمام، أو منظر طفل مقتزع في صدر سيارة بمفرده أمام مدرسة خاصة أو حضانة أطفال، وعلى مسافة أمتار من ظل سياراته يقف المئات تحت الشمس المحرقة بانتظار باص، يلغي مفعول عشرين دراسة ومائة محاضرة وألف أغنية وأهزوجة عن العدالة والاشتراكية. كأن هناك من اختص في تجويف الشعارات العربية وتفريغها كالخلد من أي محتوى... ولا يقر له قرار ما لم يتركها لمن سيجيء من بعده وهي كالبطيخة المنهوشة بالأسنان حتى القشرة البيضاء.

كأني بهؤلاء وأمثالهم منذ أول مظاهرة عام **1948** اصطفوا على طريق النضال العربي وكل منهم وضع شعاراً من الشعارات في "حلة" ووقف وراءها وبيده مغرفة وراح يفرغ ما بها كبائع السحلب.

وعندما تصبح هذه الشعارات ضجة بلا محتوى... يعودون إلى الصف مرة ثانية ويقفون رتلاً أحاديا وراء بعضهم كما في النظام المنضم وكل منهم يحمل فرشاة في يمينه وسطل دهان في يساره، ويبدأ بلصق التهمة تلو التهمة على ظهر الذي أمامه بينما تكون فرشاة الذي وراءه تعمل في ظهره وتلصق عليه ألف تهمة مماثلة. حتى أصبح ظهر المواطن العربي مع مرور الأيام والعهود والمراحل كواجهة السينما أو لوحة الإعلانات.

وفي المقابل هناك فريق ثالث يتألم ويخبط كفاً بكف لهذه الحالة.. ويدعو إلى الشفقة والرحمة بهذه الأمة ... ثم يتلفت يمنة ويسرة وينهش منها ثمن سيارته ويمضي.

ويأتي آخر ينهش منها ثمن طقم كنبايات.

وآخر ثمن مزرعة دواجن.

وآخر ثمن كباريه.

وآخر ثمن شاليه.

وآخر محضر بناء.

وآخر تعهد قمامات.

وهذه خاتم سونيتر.

وتلك فستان سواريه للصيف.

وتلك معطف فرو للشتاء.

وهذه الأمة ترتجع كالنعجة في موسم القصاص بعد أن جردت من كل ما يسترها ولم يبق منها إلا الأنسجة والأعصاب.

ولكن حذار:

يحكى أن نمراً في سيرك هندي بعد أن تقدم به العمر وأحيل على التقاعد كأي دركي عجوز، دفن رأسه بين قائمتيه وانزوى بعيداً عن الأعين، لكن الحيوانات الأخرى لم تتركه وشأنه فراح كل ما في السيرك من قطط صغيرة وقردة وثعالب وسحالي وببغاوات وسعادين يتحرش به ذهاباً وإياباً. وهو صامت لا يروم، تعففاً وسأماً، ولكن في يوم من الأيام عندما زادوا من تحرشهم لم يطق صبراً على ذلك. فانتظرهم حتى مروا قافلة واحدة ورفع يده وهوى بها عليهم. فقضى على الجميع بضربة واحدة.

الجاحظ

العربي الأول: صباح الخير.

العربي الثاني: صباح لبنان، والضفة الغربية، وجنوب لبنان، وروافد نهر الأردن، وحريق المسجد الأقصى، وضرب المفاعل النووي العراقي، واتفاقية سيناء، وكامب ديفيد، وعقد الإذعان، ومؤتمرات القمة، وخلافات المقاومة، وحرب الخليج، ومجازر صبرا وشاتيلا، ومجازر طرابلس، وقوانين الطوارئ والأحكام العرفية، يا قليل الذوق والتهذيب.

الأول: ماذا فعلت حتى تثور كل هذه الثورة وترفع عليّ حذائك؟

الثاني: عربي ويقال له صباح الخير!

الأول: ماذا يقال له إذن؟

الثاني: يقال له: صباح الجلطة، صباح الديسك، صباح الشلل النصفي ...

الأول: آسف.

الثاني: قلها مرة ثانية وسأشكوك إلى الشرطة، إلى محكمة القيم.

الأول: لم أكن أقصد استفزازك أبداً.

الثاني: ثم ما هذه الخدوش التي في وجهك؟

الأول: مناقشة عائلية بسيطة، وأنت، ما هذه الهضبة التي في رأسك؟

الثاني: ضربتني زوجتي بالطنجرة.

الأول: طنجرة عادية؟

الثاني: ألمنيوم

الأول: لا. نحن أرقى منكم. أنا ضربتني زوجتي بطنجرة بخار.

الثاني: ولذلك قد يصفر رأسك في أية لحظة عندما تنضج آلامك.

الأول: هل هذه نكتة؟

الثاني: نعم.

الأول: عجيب.

الثاني: ولكنها نكتة ملتزمة، لا يضحك لها المواطن فوراً كالنكتة البرجوازية العفنة. ولكن في ما بعد، بعد شهر أو شهرين، لأن القيمة الجدلية للنكتة ...

الأول: وهل عندكم الكثير من هذه النكات الملتزمة.

الثاني: مجموعة لا بأس بها. وبمجرد أن تقرها اللجنة المركزية، والمكتب السياسي واللجان الشعبية في الأقاليم، ويجربها المسؤولون شخصياً في بيوتهم، سوف تطرح على الجماهير في أحد أعيادها القومية.

الأول: كان الله في عون هذه الجماهير.

الثاني: تحيا الجماهير.

الأول: تحيا.

الثاني: يعيش الشعب العربي يا...

الأول: يعيش. يعيش. يعيش.

الثاني: تسقط الأحلاف الاستعمارية تا...

الأول: أرجوك دعنا من هذا الحديث، فربما سمعتنا المخابرات.

الثاني: اطمئن. أنا نفسي من المخابرات. كيف أبدو؟

الأول: سبحان الخالق. ولكن في هذه الساعة المتأخرة من الليل، والشوارع مقفرة، والناس كلهم نيام، من تراقب؟ بزوغ الشمس من الناحية الأمنية!

الثاني: بزوغ أي شيء. وإذا لم أجد ما أراقبه، أراقب نفسي.

الأول: هذه حال لم أسمع بها من قبل.

الثاني: بل هناك حالات كثيرة متشابهة. أنا مثلاً أعرف صحفياً إذا لم يجد جهة يقبض منها يقبض من نفسه.

ومطربة تغني أمام المرآة لنفسها وتصرخ بحماس: ما صار. ما صار. وبرلمانياً سابقاً يخرج من دورة المياه ويقول: انتهت الجلسة.

الأول: يبدو لي أن أعصابك في غاية الإرهاق.

الثاني: ثلاث ليال لم أعرف طعم النوم.

الأول: من تراقب.

الثاني: لا أعرف.

الأول: لِمَ لَمْ تذهب إذن إلى بيتك وتنام مع زوجتك وأطفالك؟

الثاني: لا أستطيع لأنني أنا أيضاً مراقب.

الأول: يا له من عالم عجيب.

الثاني: نعم يا صديقي، فعندنا لا بد من مخابرات تراقب المخابرات.

ومن طالب لمراقبة الطلاب.

ومن كاتب لمراقبة الكتاب.

ومن سائق لمراقبة الركاب.

ومن سكير لمراقبة السكارى.

ومن قاض لمراقبة القضاة.

ومن محام لمراقبة المحامين.

ومن مهندس لمراقبة المهندسين.

ومن حرفي لمراقبة الحرفيين.

ومن فنان لمراقبة الفنانين.

ومن صحفي لمراقبة الصحفيين.

ومن رياضي لمراقبة الرياضيين.

ومن مسافر لمراقبة المسافرين.

ومن سجين لمراقبة المساجين.

ومن يميني لمراقبة اليمينيين.

ومن يساري لمراقبة اليساريين.

ومن ناصري لمراقبة الناصريين.

ومن وحدوي لمراقبة الوحدويين.

ومن وافد لمراقبة الوافدين.

ومن فدائي لمراقبة الفدائيين.

ومن متفائل لمراقبة المتفائلين.

ومن يائس لمراقبة اليائسين.

ومن بائس لمراقبة البائسين.

ومن متحضر لمراقبة المتحضرين.

بمعنى أن السلطة تراقب الشعب، والشعب يراقب السلطة.

الأول: وإسرائيل تراقب الجميع!

مدير الإصلاحية: الاسم؟

نزيل الإصلاحية: لا أعرف.

المدير: اسم الأب؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: اسم الأم؟

النزيل: نسيت.

المدير: مكان وتاريخ الإقامة؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: عازب أم متزوج؟

النزيل: نسيت.

المدير: المهنة؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: علامات فارقة؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: فئة الدم؟

النزيل: نسيت.

المدير: الوضع المادي؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: الأمراض التي أصبت بها من قبل؟

النزيل: نسيت.

المدير: متى استعمرت الدول العربية؟

النزيل: نسيت.

المدير: ما هي أشهر معارك العرب في العصر القديم؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: في العصر الحديث؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: في العصر الوسيط؟

النزيل: نسيت.

المدير: من هو خالد بن الوليد؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: طارق بن زياد؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: الزير أبو ليلى المهلهل؟

النزيل: نسبت.

المدير: متى وقعت معركة القادسية؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: اليرموك؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: حطين؟

النزيل: نسيت.

المدير: من هو المتنبي؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: أبو العلاء المعري؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: أبو خليل الفراهيدي؟

النزيل: نسيت.

المدير: ما هل المعلقات السبع؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: لماذا كانت تعلّق على جدار الكعبة؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: أين كانت تعلّق؟

النزيل: نسيت.

المدير: ما هي المذاهب الأدبية للوطن العربي؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: عدد الأحزاب؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: عدد المذاهب؟

النزيل: نسيت.

المدير: متى ولد عبد الناصر؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: متى مات؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: من هو عبد الناصر؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: متى خرج آدم من الجنة؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: من هو آدم؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: من هي حواء؟

النزيل: نسيت.

المدير: ما هي البورجوازية؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: الرأسمالية؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: الاشتراكية؟

النزيل: نسيت.

المدير: من أول إنسان نزل على سطح القمر؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: ما هو القمر؟

النزيل: لا أدري.

المدير: ما هي النجوم.

النزيل: نسيت.

المدير: ما هو المطر؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: ما هو الربيع؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: ما هي الفصول الأربعة؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: ما هي الجهات الأربعة؟

النزيل: نسيت.

المدير: ما هو البحر؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: ما هو الهواء؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: ما هو الأوكسجين؟

النزيل: نسيت.

المدير: والآن، ما هو وزنك؟

النزيل: لا أعرف.

المدير: طولك؟

النزيل: لا أذكر.

المدير: لون الشعر والعينين؟

النزيل: نسيت.

المدير: عظيم، مدهش، تجربة رائعة لا تصدق. هل معنى ذلك أنك لم تعد تذكر أي شيء على الإطلاق يا بني؟

النزيل: نعم باستثناء كلمة صغيرة.

المدير: ما هي؟

النزيل: فلسطين.

المدير: فلسطين! إعدام.

النزيل: شكراً.

المدير: قف بعيداً مسافة مئة كيلومتر.

النزيل: وواحد.

المدير: من أي قرية أنت يا بني؟

النزيل: لا قرى عندنا.

المدير: من أي مدينة؟

النزيل: لا مدن عندنا.

المدير: من أي شعب؟

النزيل: لا شعوب عندنا.

مكوك الفضاء العربي

ناطق عربي: بعد أن هب الشعب العربي هبة الرجل الواحد وحصل على استقلاله بالعرق والدموع والدماء، وطرد المستعمر الغاشم من بلادنا شر طردة وبعد أن أممنا القناة وجابهنا العدوان الثلاثي وسطرنا أروع آيات البطولة والفداء في حرب السويس.

وبعد أن كسرنا احتكار السلاح، وأطلقنا شعار "نعادي من يعادينا ونصالح من يصالحنا".

وبعد أن أسقطنا "حلف بغداد" و"مبدأ إيزنهاور" و"مشروع جونسون" وأرسينا قواعد عدم الانحياز وسياسة الحياد الايجابي بعيداً عن هيمنة الدول الكبرى.

وبعد أن أطلقنا حركة التحرر العربي في المنطقة وراحت القلاع الرجعية تتهاوى تباعاً تحت ضربات الشعوب في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وبعد أن حشدنا طاقاتنا، ونظمنا إعلامنا وبرامجنا على أساس أن إسرائيل مخلب قط للاستعمار، وشوكة في خاصرة الوطن العربي. وبعد أن انتظرناها من الشرق فجاءت من الغرب. أطلقنا شعار: " ما يؤخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة "، وفوقه لاءات الخرطوم الشهيرة: لا صلح، لا اعتراف، لا مفاوضات.

وبعد أن تجاوزنا هذا كله في حرب اكتوبر حينما حررنا الإرادة العربية وحطمنا العنجهية الإسرائيلية أمام الملأ.

وبعد أن قطعنا إمدادات النفط عن الدول المؤيدة للعدوان، وجعلنا من زعمائها وأقطاب صناعتها يهرعون إلينا معتذرين متقربين متملقين.

وبعد أن عايشنا العمل الفدائي ورعيناه بالمال والسلاح حتى استقام عوده واشتد ساعده برا وبحرا وجوا في جميع أرجاء المعمورة واعتلى منصة الأمم المتحدة، أرفع منبر دولي في العالم.

وبعد أن وقفنا وقفتنا الغضوب من مبادرة السادات واتفاقية كامب دايفيد واتفاقية الصلح المنفرد وعزلنا مصر شعبياً ورسمياً ونقلنا مقر الجامعة العربية من القاهرة إلى تونس.

وبعد أن أكدنا على أن منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وأنه لا صوت يعلو صوت المعركة.

وبعد ان استوعبنا حرب لبنان ومنعنا إسرائيل من تحقيق أي من مخططاتها التوسعية نتيجة للتلاحم البطولي بين الشعبين اللبناني والفلسطيني أمام آلة الحرب الإسرائيلية المتعجرفة.

وبعد أن تفهمنا حرب الخليج وحصلنا على صفقة الأواكس المتطورة رغم جهود اللوبي الصهيوني داخل الكونغرس الأمريكي وخارجه ومن معه من العناصر المؤثرة في مراكز التأثير في الإدارة الأمريكية.

وبعد أن احتوينا خلافات المقاومة بعد خروجها من لبنان وأكدنا على ديمقراطية القرار الفلسطيني وعلى عدم الاستئثار به من أي طرف كان.

وبعد أن تفهمنا واستوعبنا جميع مراحل الأزمة في المنطقة عربياً وفلسطينياً ولبنانياً وخليجياً في قمة فاس الأولى وقفزنا قفزة نوعية في قمتها الثانية.

وبعد أن طافت اللجنة السباعية المنبثقة عنها أرجاء العالم من أمريكا إلى روسيا إلى فرنسا إلى بريطانيا إلى الصين لشرح الموقف العربي وجوهر الصراع في المنطقة من جميع جوانبه، ولوضع حد لممارسات إسرائيل العنصرية وأهدافها التوسعية، وبعد أن عرّينا إسرائيل دولياً وأوقعناها في عزلة خانقة، بعد أن توصلنا مع حلفائنا إلى اتخاذ القرار تلو القرار بطردها من الأمم المتحدة ومن معظم اللجان الثقافية والاقتصادية والتكنولوجية المنبثقة عنها.

وبعد أن لعبت الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج دورها الريادي في المعركة وقالت بلسان أحزابها ونقاباتها ومنظماتها لا لمشروع ريغان، كما قالتها من قبل لمشروع روجرز والقرارين **242** و **334** ولكافة الحلول الاستسلامية والطروحات التصفوية.

وبعد أن لعبت الصحافة العربية المقيمة والمهاجرة دورها الحضاري في طرح الحقائق الموضوعية ولتعرية الصهيونية العالمية ثقافياً وإعلامياً وإعلانياً.

وبعد أن لعب البترول العربي دوره القيادي المتميز سياسياً واقتصادياً وصحافياً وفكرياً وفنياً وتلفزيونياً على الصعيد الإقليمي والدولي لرأب الصدع وتوفير الجهد العربي للنهوض بمسؤولياته في المعركة.

وبعد أن أكدنا على هذا الاتجاه أمام مؤتمرات القمة ومجموعة دول عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الأفريقية والمؤتمر الإسلامي في كولومبو، وندوة الحوار العربي – الأوروبي وحوار البحر المتوسط في مالطا وفي جميع المحافل والمناسبات الدولية منذ مؤتمر غلاسبورو بين الشرق والغرب إلى المؤتمر الأخير بين الشمال والجنوب.

عابر سبيل: وبعد كل هذه اللفة والدورة سنجلس على الخازوق المعد لنا منذ عام **1948**.

المواطن والكلب

كان المثقف العربي غارقاً في بث همومه ومكنونات صدره للكلب الصغير المتثاقل ترفاً واسترخاء في احدى سيارات السلك الدبلوماسي الأجنبي وسط تجمع المارة وسخريتهم، عندما أقدم أحد رجال الشرطة مسرعاً بمسدسه وهراوته وأصفاده وغيرها من عدة الديمقراطية العربية.

المثقف: سنتابع حديثنا فيما بعد.

الكلب: لم يرتجف صوتك وتصطك ركبتاك؟

المثقف: لقد جاء الشرطي؟

الكلب: وإن جاء، ما علاقته بك أو بسواك؟

المثقف: إذا لم تفهموا هذه العلاقة حتى الآن فلن تفهموا ما يجري في منطقتنا أبداً.

الكلب: أنا لا أخاف من حلف الأطلسي.

المثقف: لأن حلف الأطلسي قد يراجع بشأنك إذا ما تعرضت لمكروه.

الكلب: أليس لك أهل وأصدقاء يراجعون بشأنك؟

المثقف: طبعاً. ولكن المشكلة أن الذين سيراجعون بشأني سيصبحون هم أوتوماتيكيا بحاجة إلى من يراجع بشأنهم. الآن وصل الشرطي. أرجوك أن تتصرف وكأنك لا تعرفني.

الشرطي: ما هذا التجمع وسط الشارع؟

المثقف: ألا تسمعون؟ ممنوع التجمع إلا لرجال الأمن.

الشرطي: هيا . كل في حال سبيله.

المثقف: مواطن يتحدث إلى كلب، هل هي فرجة؟

الشرطي: بل جريمة.

المثقف: قبل أن ترفع هذه العصا يجب أن تعرف، وأنت رجل القانون، لا يوجد في أي عرف أو دستور أو بيان وزاري ما يمنع المواطن من التحدث إلى كلب؟

الشرطي: من ندرة الأشخاص والمنابر والمتفقهين من حولك حتى تتحدث بما تعانيه إلى هذا المخلوق المنفر الغريب؟

المثقف: ولمن أتحدث يا سيدي.

الكتاب مشغولون بالجمعيات السكنية.

والفنانون بالمسلسلات الخليجية.

والمعلمون بالامتحانات.

والطلاب بمعاكسة الفتيات.

والتجار بإحصاء الأرباح.

والفقراء بغلاء الأسعار.

والمسؤولون بالخطابات.

الشرطي: عمّ كنتما تتحدثان؟

المثقف: موضوعات عامة. كنا نتحدث عن الحب.

الشرطي: كذاب. لا أحد يحب أحداً.

المثقف: عن الصداقة.

الشرطي: أيضاً كذاب. لا أحد يثق بأحد.

المثقف: عن الصحافة العربية.

الشرطي: لا أحد يقرأها.

المثقف: عن الإذاعات.

الشرطي: لا أحد يسمعها.

المثقف: عن الانتصارات.

الشرطي: لا أحد يصدقها.

المثقف: عن المقاومة الفلسطينية.

الشرطي: لا أحد يحس بوجودها.

المثقف: عن حرب الخليج.

الشرطي: لا أحد يبالي بها.

المثقف: عن الزراعة.

الشرطي: لا أحد يزرع شيئاً. كل طعامنا صار معلبات. عمّ كنتما تتحدثان للمرة الأخيرة؟

المثقف: بصراحة، كنت أحدثه عن قضية الصراع العربي – الإسرائيلي من الألف إلى الباء.

الشرطي: ياللفضيحة. تتحدث عن أهم قضية عربية إلى كلب وأجنبي أيضاً.

المثقف: لا تحمل الموضوع أكثر مما يحتمل. اعتبره تتمة للحوار العربي – الأوروبي.

الشرطي: ولماذا كنت تطلعه على صحفنا المحلية.

المثقف: كنت أتلو عليه إحدى الافتتاحيات.

الشرطي: وكيف كان تعقيبه عليها؟

المثقف: لقد عوى.

الشرطي: كلب متواطئ.

المثقف: لماذا تتحدث عنه بكل هذه الضعة والاستصغار يا سيدي؟ صحيح أنه كلب صغير بحجم قبضة اليد ولكن انظر إليه كيف يبدو وادعاً مطمئناً، وواثقاً من كل شيء، يعرف متى يأكل ومتى يشرب ومتى يخرج إلى النزهة ومتى يعود منها، ومتى ينام ومتى يستيقظ. باختصار: كلب صغير يعرف مصيره ورجل طويل عريض لا يعرف مصيره. آه يا سيدي

الشرطي. أنا الإنسان العربي، لو كان لي حقوق كلب فرنسي أو جرو بريطاني لصنعت المعجزات بقلمي البائس ودفتري المهترئ هذا. هل سمعت بإلياذة هوميروس؟

الشرطي: لا.

المثقف: بالأوديسة؟

الشرطي: لا.

المثقف: بملحمة جلجامش؟

الشرطي: لا.

المثقف: بالكوميديا الإلهية لدانتي؟

الشرطي: لا.

المثقف: بمسرحية فوست لغوته؟

الشرطي: لا.

المثقف: إذن بماذا سمعت؟

الشرطي: منذ غزو لبنان لم أسمع إلا أغنية "صيدلي يا صيدلي".

المثقف: إذن: هل تسمح لي بأن أعوي معه قليلاً.

الشرطي: لا هيّا أمامي.

المثقف: لن أمشي في الشارع هكذا.

الشرطي: ماذا تريد؟ موكباً رسمياً!

المثقف: أريد طوقاً حول عنقي فقد أهرب. كمّامة على فمي فقد أعض.

الشرطي: من ستعضّ يا هذا؟

المثقف: قد أعض الأرصفة. البنوك. الجماهير. اليمين. اليسار. الشرق. الغرب. الجنوب.

الشمال. اخفض مسدسك يا سيدي ولا تصدق ما أقول ففي النتيجة لن أعض إلا لساني على قارعة الطريق، أو أصابعي حتى يتصل الناب بالناب لأنني آمنت بشيء ما في يوم من الأيام. أليس كذلك يا سيدي الشرطي؟

الشرطي: أرجوك لا تضربني على الوتر الحساس وإلا تركت عملي وانضممت إلى المحادثات معكما.

الأقنية الرومانية

المسافر: أعددت جدول مباحثاتي مع الأمين العام لجامعة الدول العربية، وركبت رأسي قبل طائرتي، وانطلقت إلى تونس الخضراء. ولما علم بأنني "كاتب" استقبلني في المطبخ، ولكنه بدد في الحال ما اعتبرته إهانة شخصية لي، عندما ربت على كتفي وجدول مباحثاتي وقال:

القليبي: لا تبتئس يا بني، فأول تعارف بين خروتشوف ونيكسون تم في المطبخ، وأنا أجتمع بك في هذا المكان تقديراً مني ومن الجامعة التي أمثلها للدور الكبير الذي يلعبه الأدب والأدباء في هذه المرحلة.

المسافر: شكراً يا سيدي.

القليبي: وقد كان بودي أن استقبلك شخصياً في المطار، وأعود بك من سيارة الجامعة وتحت أعلامها.

المسافر: كم علماً لها الآن يا سيدي؟

القليبي: لا أعرف. ولكن منذ الإعلان عن اتفاق شولتز بين لبنان وإسرائيل لم أغادر مكتبي ولم أر حتى زوجتي وأطفالي، بانتظار ردود الفعل العربية عليه.

المسافر: وهل هو خطير لهذه الدرجة يا سيدي؟

القليبي: إنه بالتأكيد سوف يقلب معظم التحالفات والتوازنات القائمة في المنطقة. فإسرائيل هي إسرائيل، لا يمكن أن تعيد شيئاً أخذته بالقوة دون ثمن يوازيه وأكثر.

المسافر: ولكنها أخذت سيناء بالقوة ثم أعادتها بالكامل للشقيقة مصر.

القليبي: وأخذت جنوب لبنان بدلاً منها.

المسافر: ولكنها ستعيده حسب نصوص الاتفاق. فما هي المشكلة إذن يا سيدي؟

القليبي: ما الذي ستأخذه من العرب بدلاً منه. إنها في أعقاب كل حرب تضع الأمة العربية وفي طليعتها لبنان في زاوية حادة كمنقار الصقر، ليكون شعبها العصافير المطلوبة دولياً وإقليميا، فهل نسمح لها بذلك؟

المسافر: كلا، وألف كلا، ولكن كيف؟

القليبي: بالارتفاع إلى مستوى المسؤولية.

المسافر: وهل هذا الاتجاه متوفر الآن يا سيدي؟

القليبي: نعم، وعندي تأكيدات قاطعة حول هذا الموضوع.

المسافر: ولكن ها قد مضت أسابيع وأكثر على توقيع الاتفاق، والصمت العربي يكاد يكون مطبقاً.

القليبي: بالعكس، هذا دليل على استغراق الدول العربية في دراسة الاتفاق وتقييمه من جميع جوانبه قبل تحديد موقفها النهائي. فالمرحلة خطيرة والمسؤولية أخطر. وأنا أتوقع ظهور هذه المواقف وردودها إلى أمانة الجامعة تباعاً بين لحظة وأخرى. ويبدو أن وجهك خير عليّ، وعلى الجامعة العربية، وعلى الأمة العربية بأسرها.

المسافر: وجهي أنا، لماذا؟

القليبي: ألا تسمع لاقطة البرقيات الالكترونية كيف أخذت تصفر؟ إن سيل البرقيات أخذ يتوالى. لا تعبث بها أرجوك. إنها برقيات تاريخية في ظرف تاريخي.

المسافر: إذن تفاؤلك كان في محله؟

القليبي: طبعاً. فعندي تأكيدات حول ذلك.

المسافر: برقية عاجلة من ثلاث دول عربية دفعة واحدة تعلن رفضها القاطع للاتفاق. عظيم، وهذه برقية من ثلاث دول أخرى تعلن موافقتها المبدئية عليه. على كل حال، موقف.

وهذه برقية من أربع دول جديدة تعلن تحفظها مؤقتاً من الاتفاق، ريثما تقوم باتصالاتها مع الدول التي رفضت الاتفاق لتعرف لماذا رفضته. ومع الدول المؤيدة له، لتعرف لماذا أيدته، وذلك حرصاً منها على وحدة الصف العربي.

وهذه برقية جديدة من دولة جديدة، تعلن أنها ترفض الاتفاق إذا كان يتناقض مع مقررات قمة فاس، وذلك حرصاً على وحدة الهدف.

وهذه برقية من دولة أخرى، تعلن موافقتها على الاتفاق إذا كان لا يتناقض مع مقررات قمة فاس والرباط حرصاً منها على وحدة المصير.

وهذه برقية ثانية من الدول التي كانت قد رفضت الاتفاق بشكل قاطع، تعلن موافقتها المبدئية عليه، إذا كان يسمح بعودة مصر إلى الحظيرة العربية، وذلك لأسباب تتعلق بأمنها القومي.

وهذه برقية من الدول التي كانت قد وافقت عليه بشكل مبدئي، تعلن رفضها القاطع له إذا كان غطاء لمشروع ريغان، لأسباب تتعلق بسياستها الإستراتيجية.

وهذه برقية من خمس دول أخرى تعلن تحللها من كافة التزاماتها السابقة، وأنها ستحدد مواقفها الجديدة من الاتفاق بعد تفسير الملاحق المرفقة به، لأسباب تتعلق بأمنها السياسي.

وهذه برقية أخرى مستعجلة من الدول التي كانت قد رفضته ثم أيدته، تعلن أنها لا تستطيع تحديد موقفها النهائي قبل أن تتضح مواقف كافة الأطراف على الساحة اللبنانية، لأسباب تتعلق بدورها القومي.

وهذه برقية مستعجلة أخرى من الدول التي كانت قد أيدته ثم رفضته تعلن أيضاً، أنها لا تستطيع تحديد موقفها النهائي من الاتفاق، لأسباب تتعلق بدورها الجغرافي.

وهذه برقية من الأغلبية الصامتة، بين الدول العربية، تعلن أنها ما زالت كالعهد بها، وفية لالتزاماتها، أمينة على مبادئها، ثابتة على مواقفها في رأب الصدع وتوفير الجهد لتحرير لبنان ورفاهية شعبه وفرض سلطته الشرعية على كامل ترابه. ولكنها لا تستطيع بلورة موقفها النهائي من الاتفاق، قبل فرز كافة المعطيات التي كانت قائمة على الساحة اللبنانية قبل المفاوضات، وبلورتها مع كافة المعطيات التي استجدت على الساحة العربية خلال المفاوضات. ومن ثم بلورة الموقف في لبنان من الدول المؤيدة لانتمائه العربي قبل الاتفاق، والمعارضة له بعد الاتفاق، وذلك لأسباب تتعلق بدوره الفلسطيني والعربي على حد سواء. والله الموفق.

المسافر: الموفق على ماذا؟

القليبي: على كسب الوقت، ريثما تتضح بعض الأمور.

المسافر: واضحة كعين الشمس، فكل هذه العواطف المشبوهة والكلمات المعسولة عربياً ودولياً، عن الأدوار التاريخية والحضارية في المنطقة، من أجل إلغاء دور الثورة الفلسطينية وحجب الأضواء عنها أرضاً وفكراً وشعباً.

القليبي: بل لنصرتها وحماية وحدتها وأهدافها. وعندي تأكيدات قاطعة بذلك. ألو سنترال ... أعطني الثورة الفلسطينية.

السنترال: لا صوت لها يا سيدي.

القليبي: ابحث عنها في أي مكان، أريد أن أتحدث معها بأي وسيلة.

السنترال: مستحيل يا سيدي، فمكاتبها في تونس، ومعسكراتها في عدن، ومقاتلوها في البقاع، وصحافتها في قبرص، وأطفالها في المخيمات، وشهداؤها في البرادات، وشبابها في مراكز الهجرة والجوازات.

القليبي: أعطني المسؤول الفلسطيني الذي تجده.

السنترال: سافر إلى كوبا لنصرة الشعوب في أمريكا اللاتينية.

القليبي: الأحداث تتصاعد، أعطني وزير الخارجية الكوبي.

السنترال: سافر إلى المنطقة لوقف الهجمة اليمينية الشرسة عليها وعلى اليسار العربي.

القليبي: أعطني رئيس اليسار العربي.

السنترال: أي يسار؟

القليبي: اليسار العربي الماركسي.

السنترال: عرفته. لقد سافر لأداء مناسك العمرة.

القليبي: الأحداث تتشابك. أعطني مفتي المنطقة لأعرف ما هي القصة.

السنترال: سافر إلى موسكو لحضور الاحتفالات بذكرى ميلاد لينين

القليبي: بصراحة ... لم نعد نفهم ما يجري، وما سيجري.

المسافر: وهذا المطلوب.

يا شارع الضباب

كلما حلت بالأمة العربية كارثة، أو مرت عليها ذكرى كارثة، وقرأت أو سمعت أو شاهدت بهذه المناسبة مظاهرة أو مسيرة محروسة من جميع الجهات لأنها عفوية، يتقدمها صف من وجهاء وأعيان القضية. يسيرون متلاصقين كتفاً لكتف وخصراً لخصر وركبة لركبة. مثل فرقة الدبكة. معبرين بوجوههم المقطبة المتجهمة عن ذكرى العار القومي. أو يوم الحداد العالمي، دون أن تنزل من عين أي منهم دمعة واحدة. سرعان ما أتلمس ما تبقى من شعري وأنا أتساءل عما إذا كانت هناك علاقة بالفعل بين الرعب والأهوال والمفاجآت وبين نمو الشعر؟ لأنه إذا كانت مثل هذه العلاقة موجودة فعلاً، فمعنى ذلك أنه لن ينقضي العام الأول من المطر، لأية سيارة تاكسي لكي تنقلني إلى أي مكان في هذا الليل البهيم، وإذا بشاعر تقدمي يبرز لي من الضباب ويبادرني بلهفة: – أين أنت يا رجل؟ عندي حفلة تعارف صغيرة في البيت وحبذا لو تقبل دعوتي.

قلت مستريباً: من الحضور؟

قال: وفد صداقة من إحدى الدول الاشتراكية. ويسعدني أن تتعرف اليهم.

قلت: آسف.

قال: ولكن هناك كثير من الفودكا. والعشاء "فيليه" من فخذ الغزال. جئت به خصيصاً من أعماق السهول الروسية.

قلت: تقصد أنه غزال تقدمي؟

قال ضاحكاً: تقريباً.

قلت: حسناً لن أذهب ولو كان العشاء "فيليه" من فخذ بريجنيف.

قال: أهو موقف؟

قلت: أبداً، كل ما هنالك أنني لبيت دعوة من هذا النوع من قبل وأقسمت أن لا أعيدها. إذ شربنا نخب كل الأحزاب والقوى والتجمعات التقدمية في أوروبا وأمريكا حتى جاء الخبز والملاعق، ونخب كل الثورات في آسيا وأفريقيا حتى جاءت السلطة وهذا كان منذ سنين. فما بالك الآن والعالم يبيض ثورات؟

قال: لا ... لا ... أنت غاضب لسبب آخر. رفع العلم الإسرائيلي في سماء مصر. لا تحزن يا صديقي ولا تتشاءم. اتفاقيات كامب ديفيد ونظام السادات والحلف الامبريالي كله سيسقط.

قلت بلهفة: كيف؟

قال: بإرادة الشعوب وقواها التقدمية وسوف تعود فلسطين إلى أهلها!!!

قلت: أليس هو الشعار المطروح منذ 1948 قبل الميلاد؟

قال: نعم.

قلت: في هذه الحالة أرجو أن تبلغ صديقي الشاعر يوسف الخطيب أن لا يوجه لي الدعوة لتناول الغذاء في يافا أو حيفا كما فعل صبيحة حرب حزيران.

قال: بل ستحضر وتكون في طليعة المدعوين.

قلت: لا أحب الظهور. وإذا كان لا بد فسأجلس على طرف المائدة.

قال منشرحاً: والآن ما علينا إلا دعم وتأييد التدخل السوفييتي في شؤون أفغانستان بناء على طلب حكومتها. لأن القضية العربية مربوطة جدلاً بما يجري في أفغانستان. وهذا تعليق لكاتب تقدمي انكليزي مصداقاً لما أقول. وبعد أن ألقيت التعليق دون أن أنظر إليه، تقدم ومن خلال الضباب أيضاً طليعي آخر وبادرني معاتباً: "رأيتك تتحدث مع واحد من جماعة موسكو. وهم مشبوهون ومرتهنون لأي نظام والماركسية اللينينية منهم براء. فللوقوف في وجه الامبريالية أعدموا ملايين الفلاحين في الثورة. ليأكلوا خبزهم في نهايتها من حقول الامبريالية وبالرجاء والتوسل. وهذا كتاب لريجيس دوبريه يؤيد هذه المقولة من أول سطر".

وما أن اتبعت الكتاب بالتعليق الذي سبقه حتى برز لي من الضباب أيضاً ناقد متطرف وقال: لقد رأيتك تتحدث إلى واحد من جماعة "ماو" إنهم منحرفون ومزيفون للعقيدة اللينينية – الماركسية. لقد أبادوا العصافير في بلادهم ليتحولوا هم أنفسهم إلى عصافير على أغصان الامبريالية. وكل ما يفعلونه الآن هو الزقزقة عن الاشتراكية. وهذه مقابلة مع رودنسون تفضح أكاذيبهم وعمالتهم.

وما كاد ينصرف حتى كنت وجهاً لوجه مع مخرج من أقصى أقصى اليسار، وقد بادرني مزبداً مرغياً: لقد رأيتك تتحدث مع واحد من جماعة تروتسكي. وهي جماعة منقرضة ومشكوك بأمرها منذ زمن بعيد. وعليك أن تنتظر نهايتهم جميعاً.

قلت: لم يعد عندي جلد حتى لانتظار باص.

قال: إن ما يحتاجه العالم الآن هو يسار جديد يكتسح الأخضر واليابس. وهو في طور التكوين. فكل الشارع العربي يساري.

قلت: نعم. الشارع يساري والأزمة يمينية.

قال: أنت مضلل ومسكين وبحاجة إلى من يرشدك ويحميك. هل تنضم إلينا.

قلت: أبعدني عن السياسة أرجوك.

قال: حسناً هناك لجنة أدبية وليست سياسية للدفاع عن حرية الكاتب العربي وهي يسارية. ما رأيك؟

قلت: لجنة يسارية تنبت هكذا فجأة للدفاع عن الكاتب العربي. عن الفلاح العربي. عن الكندرجي العربي، لن أنتسب إليها قبل أن أعرف بالضبط كم عدد أعضائها وكم دولاراً رأسمالها!

فصرخ مزمجراً: أمريكا ... أمريكا ... اللعنة على أمريكا. إنها وهم، انظر ما جرى ويجري لها في إيران وأفغانستان والسلفادور وبوغوتا على أيدي شعوبها. ونحن جزء من هذا العالم المتفجر، وعليك – شئت أم أبيت – أن تنتظر الثورة العربية الشاملة.

قلت مذعوراً: تقصد أن الثورات التي مرت علينا كانت "أكل هوا" مقدمات! وأن الضربة الكبرى لم تأت بعد؟

قال: طبعاً. إن الماركسية – اللينينية ستنتصر. وسوف تحقق الرفاه المبرمج. والتوازن بين الدخل والإنفاق، والإنفاق والإنتاج، لأن رأس المال ...

قاطعته متوسلا ... وأنا أهم بالانصراف: " أخي أمنوا لي خبزاتي ودخاناتي كل يوم وصندلين لولدي كل سنتين وأنا ممنون شوارب ماركس ولينين وأنجلز واسبارتاكوس ".

شجار عائلي

الأول: لماذا تختبئ في هذا البرميل؟ وفي مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ قل الحقيقة وإلا أبلغت عنك الحارس أو منظمة " أوبيك" .

الثاني: وأين أختبئ إذن؟

الأول: ومم أنت هارب؟

الثاني: من الصحفيين والسياح الأجانب.

الأول: لماذا؟

الثاني: في الحقيقة. منذ أن احتلت إسرائيل سيناء والجولان والضفة الغربية، وأعلنت القدس عاصمة أبدية لها، وعزلت مصر، وضربت المفاعل النووي العراقي، ووصلت إلى بيروت، وشردت المقاومة بحراً وبراً وجواً، وألحقت بها الحركة الوطنية، ولم تتحقق أهدافها، كما يؤكد لنا الإعلام العربي بكل اعتزاز وفخر، صار هدفي الوحيد كعربي أن أتوارى عن الأنظار حتى لا يصيبني أحد بالعين، أو يقتطع أحد ثوار أمريكا اللاتينية وايرلندا خصلة من شعري أو مزقة من ثيابي للتبرك بها في معاركهم الدائرة هناك. أو أن يحاصرني الصحافيون والسياح الأجانب بالأسئلة أو ينوموني مغناطيسياً، ليعرفوا السر الذي يجعل العربي يحقق الانتصار تلو الانتصار في جميع الظروف والمناسبات وهو يتثاءب في المقاهي، فالموضوع يحتاج إلى كثير من الحيطة والحذر.

الأول: بل تحتاج إلى لطمة على هذا الوجه، وهل شعوب أوروبا وأمريكا وروسيا عديمة انتصارات أيها المغفل؟

الثاني: طبعاً. لقد حقق المساكين كلهم مجتمعين، انتصاراً يتيماً واحداً على ألمانيا منذ أربعين سنة وانتهى الأمر. بينما نحن العرب، نحقق كل يوم عشرات الانتصارات دون ملاجئ وصفارات إنذار ومشوهي حرب كما كان عندهم. ولذلك فهم يغارون منا، ويحاولون المستحيل لمعرفة السر الكامن وراء هذا الإسهال في الانتصارات المتلاحقة، وهذا يفرض علينا أن نكون كتومين ومقتضبين في أحاديثنا معهم، وأن لا نبوح بأية كلمة عن أسرار هذه الانتصارات لأنها ملك للمستقبل وللأجيال اللاحقة.

الأول: اطمئن، فكل محاولاتهم ستتحطم على صخرة الصمود والمقاومة العربية ..

الثاني: ومع ذلك، حذار من أية كلمة هنا أو هناك.

الأول: لا توصي حريصاً، فعندي مكان لكل أسرار العالم، ولكن ليس عندي مكان أنام فيه.

الثاني: انزل إلى جانبي في هذا البرميل، ماذا تنتظر؟

الأول: وهل يتسع لاثنين؟

الثاني: إنه يتسع لمؤتمر قمة، أفلا يتسع لاثنين من رعاياه؟

الأول: أفسح لي مكاناً إذن؟

الثاني: تفضل على الرحب والسعة. وقهوتك المرة جاهزة.

الأول: شكراً. أنا لا أشرب إلا الفودكا.

الثاني: أنت يساري إذن؟

الأول: ومتطرف أيضاً.

الثاني: وماذا تفعل عندي في هذا البرميل إذن؟

الأول: وأين أنام في هذا البرد القارس؟

الثاني: في قلوب الجماهير.

الأول: وإذا تكشفت في الليل؟

الثاني: تغطيك الدولة إعلاميا.

الأول: أنا لست موظفاً ولا علاقة لي بأية جهة رسمية. أنا مناضل قطاع خاص، ومتفائل أيضاً.

الثاني: أما أنا فيائس ومتشائم قطاع عام.

الأول: لولا هذا البرد المريع لما بقيت معك لحظة واحدة.

الثاني: هناك أزمة طاقة.

الأول: إذن نحن نجلس في أزمة الطاقة.

الثاني: وأين أزمة الطاقة؟

الأول: في البرميل.

الثاني: وأين البرميل؟

الأول: في الوطن.

الثاني: وأين الوطن؟

الأول: في قلوبنا، في قلوب الجماهير.

الثاني: وأين الجماهير؟

الأول: في البرميل، إذن دحرجونا إلى فلسطين، إلى حيفا ويافا.

الثاني: اخفض صوتك، جاءت الدورية.

الأول: إلى الناصرة، إلى بيت لحم.

الثاني: إذا لم تسكت، فلن يدحرجوك إلا إلى بيت خالتك.

الأول: أعظم برد في العالم هو برد روسيا، هناك حيث تظل متجمداً باستمرار أمام عظمة الانجازات التي حققتها الشعوب.

الثاني: نحن والحمد لله، دون ثلج أو صقيع أو أوحال، متجمدون منذ الجاهلية حتى الآن.

الأول: أعظم وحل في التاريخ هو وحل روسيا. هناك حيث تنزلق أقدام المجتمع من الإقطاع إلى الاشتراكية إلى الشيوعية دون أن يشعر أحد بذلك. إنه وحل صبور وداهية.

الثاني: أما الوحل العربي، فهو عصبي وانفعالي جعل الأمة العربية بكاملها تتزحلق خلال شهور فقط من تحرير فلسطين وضرب مصالح الشرق والغرب إلى تحرير النبطية وسوق الغرب وتصبح على خير.

الأول: كل هذا الذي حدث ويحدث لأن الشكل النهائي لخريطة النضال العربي لم يكتمل بعد.

الثاني: إذا بقيت مفاهيم النضال العربي كما هي عليه الآن، فإن الشكل النهائي لخريطته، وخريطة الوطن العربي نفسه، لن يكون في المستقبل إلا كشكل الخنفس بعد أن يقول له حلاق السجن " نعيماً " وتصبح على ألف خير.

الأول: هل تنام؟

الثاني: نعم وشراع الحق حطام.

الأول: إلى متى؟

الثاني: حتى تنتهي مفاوضات خلدة.

الأول: ولكنها لن تنتهي كما تريد أمريكا.

الثاني: ولا روسيا.

الأول: لا تقرن اسم صديقة الشعوب بعدوّة الشعوب.

الثاني: اهدأ قليلاً ستقلب بنا البرميل.

الأول: لينقلب العالم بأسره، لن تنتهي المفاوضات كما يحلو لأعداء هذه الأمة. فالخلافات قائمة على قدم وساق فيما بينهم. أين الراديو؟ أريد أن أسمع الأخبار.

الثاني: بدون راديو أو صحف أو تلفزيون. أنا أقول لك آخر الأخبار وأول الأخبار منذ النكبة حتى الآن. كل طبخة سياسية في المنطقة، أمريكا تعدها، وروسيا توقد تحتها، وأوروبا تبردها، وإسرائيل تأكلها، والعرب يغسلون الصحون.

مستعمرة الجذام

التوتر الحالي الذي تعيشه المنطقة أو الظروف العصبية التي تمر بها أو الخطر الصهيوني أو الاستعماري أو الامبريالي (سمه ما شئت) والذي يتهدد الوجود العربي من أكبر رأس إلى أصغر رأس في جميع أرجائها.

العرب يعزونه إلى وجود إسرائيل.

وإسرائيل تعزوه إلى الاستعدادات العربية لإزالتها من الوجود.

وأمريكا تعزوه إلى رغبة روسيا في الهيمنة على المنطقة.

وأوروبا تعزوه إلى التواجد الفلسطيني على أراضي لبنان.

والفلسطينيون يعزونه إلى طردهم من لبنان.

والأمم المتحدة تعزوه إلى عدم التحلي بالصبر وضبط النفس.

ومصر تعزوه إلى تجميد اتفاقيات كامب ديفيد ومفاوضات الحكم الذاتي.

وإيران تعزوه إلى حرب الخليج.

والدول الثورية تعزوه إلى عدم التمسك بأهداف الجماهير.

والدول المحافظة تعزوه إلى عدم التمسك بحبال الإسلام.

والاقتصاديون يعزونه إلى الفائض النفطي.

والخبراء يعزونه إلى أطماع إسرائيل التاريخية في المياه العربية.

والعسكريون يعزونه إلى زيادة التسلح في المنطقة.

والغربيون يعزونه إلى صواريخ "سام 6" والشرقيون إلى "أف 16".

والأقمار الصناعية تعزوه إلى تزايد الأساطيل الأجنبية في المنطقة.

وقد يذهب البعض ويلف ويدور ليصل إلى تلوث البيئة والغواصات في أعماق البحار، أو القمر والزهرة وعطارد في أعماق الفضاء، لطمس السبب الحقيقي والتاريخي ألا وهو الإرهاب العربي وانعدام حرية الرأي والتعبير في هذه المنطقة.

ولذلك فكل هذه الاتصالات والمشاورات التي تجري هنا وهناك وهذه الحيرة التي تعم العواصم العربية والأجنبية حول أي القضايا الأكثر إلحاحاً للبدء بحلها. قضية الجنوب. قضية الجبل. وهل القضية اللبنانية مرتبطة بحل قضية الشرق الأوسط أولاً، أم أن حل قضية الشرق الأوسط مرتبط بحل القضية اللبنانية، لا تثير في النفس إلا الأسى والحزن، لأن العرب يعرفون وأمريكا تعرف وروسيا تعرف وجزر القمر تعرف واسرائيل أول العارفين أنه لا يمكن حل لا أزمة الجنوب ولا أزمة الشمال ولا أزمة المقاومة ولا أزمة المستوطنات ولا أزمة الحكم الذاتي ولا أزمة الحرب العراقية – الإيرانية ولا حتى أزمة بقعة الزيت الطافية في بحار الخليج، قبل حل أزمة الإنسان العربي مع السلطة، وإنهاء أحكام المقاطعة العربية المطبقة عليه بنجاح منذ عام 1948 قبل الميلاد حتى الآن.

أليس من العار بعد كل هذا التطور العلمي والحضاري الذي حققته البشرية وبعد مئات الجمعيات وآلاف المدارس التربوية والفنية والأدبية والمسرحية والفندقية التي تغطي أرض الوطن العربي أن تظل لغة الحوار الوحيدة بين السلطة والمواطن هي الرفس واللبط وشد الشعر؟

ترى لو أن إسرائيل منذ نشأتها وزرعها في قلب الوطن العربي بدأت بكم الأفواه وبناء السجون وتجويع العمال وسرقة الفلاحين، وكلما احتج طبيب اعتقلته، أو ارتفع صوت أخرسته، ثم انصرفت إلى التهريب

والاصطياف والاستجمام وتنقيط الراقصات في ربوع أوروبا ... هل كانت تحتل الضفة الغربية وسيناء والجولان، وتدمر المفاعل النووي العراقي وتعزل مصر وتجتاح لبنان وتتطلع إلى الهند وباكستان؟

من تنشق زهرة برية أو طارد فراشة أو سمع سعال عصفور عند الفجر منذ سنوات؟

من تأمل القمر أو الغروب أو شرب الماء براحتيه من ساقية منذ قرون؟

من سمع ضحكة عربية من القلب منذ بدء التاريخ؟

لا شيء غير القتل والنهب وسفك الدماء.

لا أحد يفكر أن هناك طفولة يجب أن تنمو.

شفاهاً يجب أن تقبل.

عيوناً يجب أن تتلاقى.

أصابع يجب أن تتشابك.

خصوراً يجب أن تطوق بغير القنابل والمدى والانفجارات.

أيها العرب، استحلفكم بما تبقى في هذه الأمة من طفولة وحب وصداقة وأشجار وطيور وسحب وأنهار وفراشات.

استحلفكم بتحية أعلامها عند الصباح وإطراقة جبينها عند المساء، لقد جربتم الإرهاب سنين وقروناً طويلة وها أنتم ترون إلى أين أودى بشعوبكم.

جربوا الحرية يوماً واحداً لتروا كم هي شعوبكم كبيرة وكم هي إسرائيل صغيرة.

أنا الحاوي

أنا العرب دون نفط.

وعبد الناصر دون ميكروفونات.

أنا المؤامرة على لبنان ولا أستطيع فضحها.

مجازر حرب الخليج ولا أستطيع وقفها.

المقاومة الفلسطينية تنهار ولا أستطيع دعمها.

البطون الجائعة في كل بيت ولا أستطيع إطعامها.

الأجساد العارية على كل رصيف ولا أستطيع سترها.

الجراح العميقة في كل قلب ولا أستطيع تضميدها.

الخناجر المغروسة في كل ظهر ولا أستطيع نزعها.

الدموع على كل وجه ولا أستطيع تجفيفها.

الوحدة القاتلة في كل سرير ولا أستطيع تخفيفها.

الجثث المبعثرة في كل خطوة ولا أستطيع دفنها.

النسور الحبيسة في كل قفص ولا أستطيع إطلاقها.

الحقوق المهدورة في كل مكان ولا أستطيع لمسها.

أي أن جميع الطاقات السياسية والفكرية والاقتصادية والعاطفية كالحب والخير والجمال والصداقة والخبرة والوفاء وطرافة الحديث وشدة الانتباه يجب أن تجد نفسها أمام العجز الكامل.

أي أن الإنسان العربي لا يستطيع في هذه الظروف العصبية التي تمر بها أمته أن يلعب أي دور سياسي أو ثقافي أو اجتماعي أو نضالي ولو غناء مثل عبده الحامولي أو صالح عبد الحي.

ولكن، من جهة أخرى، لقد دربت الدببة على الرقص.

والقردة على الغناء.

والبلابل على النعيق.

والنمل على الفوضى.

والماعز على النظام.

والثعلب على الوفاء.

والكلب على الغدر.

والسنونو على الإقامة.

والدجاج على الهجرة.

والذئب على التسامح.

والبجع على الحقد.

والحملان على الصمود.

والأرانب على التهور.

والضفادع على الصمت.

والببغاء على الخطابة.

والسمك على النوم.

والجراد على الزحف.

والسلحفاة على القفز.

ولم أستطع تدريب إنسان عربي واحد على صعود الباص من الخلف والنزول من الأمام، فكيف بتدريبه على الثورة.

ولذلك زودت أطفال الشرق منذ الآن بعناوين الأونروا ووكالات غوث اللاجئين، ودربتهم على الوقوف في طوابير الإعاشة وآداب النوم في الملاجئ والاستلقاء في المقابر الجماعية، ودربت قاصراته على آلام الاغتصاب وضرورة التمسك بلعبهن، بحصالات نقودهن، بثياب الموتى من حولهن، أن لا يأخذن أبداً بالشعار الذي أطلقته إسرائيل عام 1948 : "العرض قبل الأرض" لأن الأرض قبل العرض والطول.

قبل بيارات البرتقال وبساتين الليمون، قبل زرقة البحر وغناء الصيادين ومواويل الفلاحين، قبل الزراعة والصناعة والفن والعلم والمعرفة واليمين واليسار، والماضي والحاضر والمستقبل ولكنها ليست قبل الحرية.

طفح جلدي

تكتب عن دول الخليج فتتحسس إيران.

تكتب عن إيران فتتحسس دول الخليج.

تكتب عن اليسار في الوطن العربي فيزعل اليمين.

تكتب عن اليمين فيزعل اليسار.

تكتب عن جماعة عرفات فتأخذ جماعة أبو موسى على خاطرها.

تكتب عن جماعة أبو موسى فتأخذ جماعة عرفات على خاطرها.

فالكل حساس وشاعري. وبشرته السياسية لا تحتمل النسيم العليل في هذه المرحلة. والكل له حساباته الداخلية والخارجية والاقتصادية والأمنية والدينية والتاريخية وتكتيكاته الإعلامية والمرحلية والاستراتيجية التي يجب مراعاتها والتوفيق فيما بينها عند كل كلمة يكتبها كاتب أو تمثيلية يخرجها مخرج أو أغنية يغنيها مطرب، أو نكتة يلقيها مهرج.

وبما أنني لست الشاذلي القليبي لكي أوفق بين آلاف الأمزجة والطباع والتناقضات، وأنا أبتسم فان الرد الوحيد والجاهز لدي على أول حرف يحذف لي مرة أخرى هو فوراً وبدون تردد:

جميع الأنظمة العربية على رأسي.

ودول الخليج على عيني.

وإيران على عيني الثانية.

ومنظمة التحرير على ظهري.

والجيوش العربية على صدري.

ومنظمة أوبيك على بطني.

والحريات العامة على رجلي.

فمنذ زمن بعيد وأنا أشعر بأنني وقفت أكثر مما يلزم إلى جانب الإنسان العربي الذي هو نفسه لا يقف إلى جانب نفسه، وبأنني ظلمت الأنظمة العربية وتجنيت عليها أكثر مما يجب عندما ركزت على ما عندها من سلبيات على حساب ما قدمته لشعوبها من ايجابيات لا يمكن لأي حضري أو بدوي مهما دفن رأسه تحت الرمال أو تحت الوسائد أن ينكرها ويتجاهل أثرها في الحياة وفي المجتمع.

فناهيك عن شق الطرقات وتشجير الصحارى وتحلية مياه البحر واستصلاح الأراضي وتوسيع المدن وإنارة القرى، وإلزامية التعليم، ومجانية الطب، ومكافحة التسيب والفساد والبغاء، واستقلالية القضاء، وعن تحديث المجتمع العربي بأسره، ونقله من ظلمات الجهل والتخلف إلى مستويات ظهرت مراراً على أغلفة " التايم " و "النيوزويك" و "الموند" وكبريات الصحف والمجلات العالمية.

فهناك الايجابيات الكبرى على الساحة العربية والقومية واسمحوا لي أن أعدد بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر:

نسف مقر المارينز والوحدة الفرنسية في بيروت.

نسف مقر الحاكم العسكري الصهيوني في صور.

تصعيد المقاومة اللبنانية في الجنوب المحتل.

واستئنافها في داخل فلسطين المحتلة.

رفض مشروع الرئيس ريغان والتمسك بمقررات قمة فاس.

إسقاط حكومة بيغن وربما إسقاط ريغان نفسه.

قرب عودة العلاقات بين الاتحاد السوفيتي ومصر وبين مصر والعالم العربي.

وقطعها مع السلفادور وكوستاريكا.

تقديم كافة المساعدات المادية والمعنوية للدول الفقيرة ولحركات المقاومة في ايرلندا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وأفغانستان.

* * *

حتى الإرهاب العربي الذي غطى المنطقة وخارجها بالدماء والجماجم والمخطوفين والمفقودين، وبكل ما قام به من اغتيالات سياسية وتصفيات جسدية ومقابر جماعية هو إرهاب ايجابي وجزء أساسي من الخطة العربية المتكاملة منذ الخمسينات حتى الآن في صراعنا مع العدو الصهيوني ولكنه جزء سيكولوجي أو بيولوجي كما سيتضح للسذج وقصيري النظر في المستقبل. واسمحوا لي بأن أوضح لكم ذلك: فالمعروف تاريخياً أنه كلما لاح في الأفق شبح معركة أو حرب جديدة بين العرب وإسرائيل يهب الإعلام الصهيوني والمتعاطفون معه في جميع أنحاء العالم ويبدؤون بالصراخ والعويل والاستهزاء وتأليب الرأي العام العالمي ضدنا:

مائة وخمسون مليوناً على ثلاثة ملايين؟

أين التكافؤ؟ أين الشهامة؟

أين الفروسية في مثل هذ المعركة؟

ولقطع الطريق عليهم نهائياً ونزع هذه الورقة من أيديهم مستقبلاً فقد صمم الإرهاب العربي على متابعة تصفياته الجسدية حتى لا يبقى من المائة والخمسين مليون عربي سوى ثلاثة ملايين فقط، أي بعدد سكان

إسرائيل تماماً. وعندما تبدأ المعركة الفاصلة لا تستطيع هي وعملاؤها والمتعاطفون معها في الخارج أن يسخروا من العرب والادعاء بأن المعركة غير متكافئة.

والآن اسمحوا لي أن أضع عشرين شريطاً لناظم الغزالي وأغلق الباب على نفسي حتى الأسبوع القادم.

ملكة النحل

إذا كان لكل من القوى والأحزاب والطوائف والميليشيات المسلحة في لبنان خط أحمر أو أخضر أو أصفر تنسحب إليه عند الضرورة. فالمواطن اللبناني العادي، إلى أين ينسحب. وليس له في وطنه سوى خط تلفون ومقطوع أيضاً؟

ثم لبنان الذي فتح لنا حدوده في يوم من الأيام لنطمئن، وصحفه لنكتب، ومدارسه لنتعلم، وقدم لنا خبزه لنأكل، وينابيعه لنشرب، وشواطئه لنسبح، وجباله لنصطاف، وثلوجه لنتزلج، وشمسه لندفأ، وذراعه لننام، ونواقيسه لنصحو، وحاناته لنلهو، وجوامعه لنتعظ، ومقاهيه لنتحاور، ومنابره لنصرخ، ولياليه لنحب، وحتى روشته لننتحر... لماذا يعامل بكل هذه القسوة والسادية والتشفي، محلياً وعربياً ودولياً؟

هل هو المسؤول عن وعد بلفور وتقسيم فلسطين؟

هل هو المسؤول عن العدوان الثلاثي؟

هل هو المسؤول عن تحويل روافد نهر الأردن؟

هل هو المسؤول عن حرب اليمن؟

هل هو المسؤول عن نكسة حزيران؟

هل هو المسؤول عن أيلول الأسود؟

هل هو المسؤول عن بناء المستوطنات؟

هل هو المسؤول عن زيارة السادات للقدس؟

هل هو المسؤول عن تهويد القدس؟

هل هو المسؤول عن حرب الخليج؟

هل هو المسؤول عن اتفاقية سيناء؟

هل هو المسؤول عن اتفاقيات كامب ديفيد؟

بل ماذا يأخذون عليه في المنطقة. ولا يوجد عندهم منه أضعاف ما عنده؟

ظلم اجتماعي؟ أين عدالتهم الأفلاطونية؟ تمثيل نيابي غير متوازن؟ وعندهم لا يوجد تمثيل لا متوازن ولا غير متوازن. تحكمه عقليات متخلفة؟ حتى إسرائيل التي تدعي أنها في المنطقة واجهة للتقدم والحضارة الالكترونية، لا يزال نصف شعبها وحكامها يؤمنون بيأجوج ومأجوج.

يريدون أن يعود له وجهه العربي الأصيل: وهل الوجه لا يكون عربياً وأصيلاً إلا إذا كان ملفوفاً بالضمادات ومغطى بالجروح والقطب والمراهم؟ ثم ما فائدة الوجه إذا كان عربياً، والقفا أمريكياً أو انكليزياً أو فرنسياً؟

ولذلك، فيا أيها المسلحون الأكارم، أياً كانت انتماءاتكم وطوائفكم وأهدافكم وأنواع أسلحتكم، تابعوا أعمالكم ولا تبقوا على شيء في لبنان.

غيّروا وجهه وحدوده وخريطته.

دمروا المعامل والمصانع والمقاهي والفنادق ودور السينما ودور اللهو ودور السكن.

اقصفوا حنجرة فيروز ووديع الصافي وزكي ناصيف، وألحان الرحابنة وتوفيق الباشا ووليد غلمية.

لوحات رفيق شرف وتماثيل الفريد بصبوص.

قصائد سعيد عقل وأنسي الحاج وطلال حيدر ومحمد علي شمس الدين.

مؤلفات سعيد تقي الدين وجبران والشرتوني وعبد الله العلايلي.

مسرحيات شوشو ونبيه أبو الحسن ونضال الأشقر ورضا كبريت.

احرقوا الصحف والمجلات، ودمروا المطابع الحديثة والقديمة، ودار الفكر، ودار القلم، ودار العلم، ودار التقدم، ودار الحكمة، ودار الأديب، ودار الآداب، ودار العودة، ودار الكلمة، ولا تتركوا في لبنان إلا الدخان والخرائب والأبواب المتأرجحة على مفاصلها. ولكن فقط ترفقوا بالأطفال والتلاميذ الصغار، فما جريمتهم إذا ولدوا في لبنان وفي هذه المرحلة؟

ولذلك، إذا ما قتل بعد اليوم رضيع على صدر أمه، أو تلميذ في طريقه إلى مدرسته في لبنان وغير لبنان، فلسوف أطلب من جميع المحافل الدولية ألا تقبل بعد الآن أي عضوا أو مبعوث أو سفير من هذه المنطقة، إلا إذا كانت عصابة الريش حول رأسه، وجعبة السهام والرماح في كتفه، وأوراق الشجر على عورته.

تقدم ملموس

خرج المسؤول اللبناني المكلف بتحقيق الوفاق الوطني في لبنان من مكتب المسؤول الأعلى الذي كلفه وهو يفرك يديه حماسة وأملا بنجاح مهمته. وفور خروجه اجتمع بمستشاره القانوني لشؤون الوفاق وقال له وهو يتحاشى قذيفة "هاون": لبنان يحترق. لبنان بأرضه وشعبه ووجوده يتعرض لمؤامرة كبرى. ومسيرة الوفاق الشامل والمدروس لا يمكن إيقافها ودحرها، فمن أين نبدأ؟ فقال المستشار وهو يتحاشى قذيفة " آر. بي. جي" نبدأ من أول الخيط من إخوته العرب.

المحطة الأولى: كنا دائماً مع لبنان وسيادته وحريته، ونحن كدولة مواجهة، فما توافق عليه دول المواجهة نحن موافقون عليه.

دولة مواجهة: كنا دائماً مع لبنان وسيادته وحريته، ونحن كدولة مواجهة، فما توافق عليه دول المساندة نحن موافقون عليه.

دولة مساندة: كنا دائماً مع شعب لبنان وسعادة لبنان. ونفتقد أمنه واستقراره في جميع الظروف والأوقات وخاصة في فصل الصيف. ونحن كدول مساندة نظل في النتيجة أعضاء في الجامعة وما توافق عليه الجامعة نحن موافقون عليه.

الجامعة العربية: كان لبنان ولا يزال عضواً فعالاً في الجامعة، ولذلك فالمأساة التي يتعرض لها مسؤولية عربية بالدرجة الأولى. ولذلك ما توافق عليه جميع الدول العربية دون استثناء نحن موافقون عليه، بما في ذلك مصر.

مصر: نوافق على ما توافق عليه الدول المتحضرة فقط.

الدول المتحضرة: كنا دائماً نعي دور لبنان الحضاري والثقافي في المنطقة، ولذلك ما توافق عليه السعودية نحن موافقون عليه.

السعودية: كان لبنان ولا يزال عزيزاً علينا غالياً على قلوبنا. ونحن كبلد إسلامي فما توافق عليه الدول الإسلامية الأخرى نحن موافقون عليه.

الدول الإسلامية: يحتل لبنان وما يتعرض له من مصاب جزءا كبيراً من دعواتنا وصلواتنا وخاصة في مواسم الحج والعمرة. لأننا نعتبر سلامته من سلامة راولبندي أو مقاديشو. ونحن كأعضاء في دول عدم الانحياز، فما توافق عليه هذه الدول نحن موافقون عليه.

دول عدم الانحياز: كان لبنان ولا يزال عضواً محترماً ومرموقاً في كتلة عدم الانحياز، وكنا دائماً نعتبر مصيره جزءا من مصير باندونغ وكولومبو. ونحن كأعضاء في الأمم المتحدة فما توافق عليه هذه المنظمة نحن موافقون عليه.

الأمم المتحدة: كان لبنان عضواً بارزاً ونشطاً في الأمم المتحدة. ولكن ماذا يمكن لهذه المنظمة أن تفعل له أو لغيره دون مساعدة روسيا وأمريكا.

روسيا: كان لبنان بلداً صديقاً ومناضلاً عنيداً من أجل السلام. ونحن دائماً حريصون على أمنه واستقراره. فبعد أزمة القمح والأزمة الصحية للرئيس بريجينيف وأزمة الجينز في بلادنا تحتل أزمة لبنان حيزاً كبيراً من اهتمامنا وتفكيرنا لأننا نعتبر مستقبله جزءاً من مستقبل أوكرانيا وقفقاسيا. ولكن حتى لا نضطر لمجابهة نووية مع أمريكا بسببه، فما توافق عليه أمريكا نحن موافقون عليه.

أمريكا: كنا دائماً مع استقلال لبنان وسيادته على جميع أراضيه. وفي كل مؤتمر عن أزمة الطاقة، أو خطاب في البيت الأبيض عن قناة بنما، أو مناسبة انتخابية في أوكلاهما، كان لنا فقرة أو فقرتان عن لبنان. ولذلك ما يوافق عليه اللبنانيون بجميع أحزابهم وطوائفهم نحن موافقون عليه.

الكتائب: ما يوافق عليه الأحرار نحن موافقون عليه.

الأحرار: وما توافق عليه الرابطة المارونية نحن موافقون عليه.

الرابطة: وما توافق عليه الكتلة الوطنية نحن موافقون عليه.

الكتلة: وما يوافق عليه الأرمن والأكراد نحن موافقون عليه.

الأكراد: وما يوافق عليه حراس الأرز نحن موافقون عليه.

حراس الأرز: وما يوافق عليه سعيد عقل نحن موافقون عليه.

سعيد عقل: ما يوافق عليه صنين وقلعة جبيل وأعمدة بعلبك نحن موافقون عليه.

أعمدة بعلبك: ما يوافق عليه أعمدة السياسة أنا موافقة عليه.

المرابطون: ما يوافق عليه الاشتراكيون نحن موافقون عليه.

الاشتراكيون: ما يوافق عليه الناصريون والقوميون والشيوعيون نحن موافقون عليه.

الشيوعيون: ما يوافق عليه اتحاد العمال نحن موافقون عليه.

اتحاد العمال: وما يوافق عليه اتحاد الكتاب نحن موافقون عليه.

اتحاد الكتاب: ما يوافق عليه أدونيس نحن موافقون عليه.

أدونيس: أنا موافق، إذا وافق سان جون بيرس.

جميع الكتاب والشعراء وأصحاب الفعاليات والعاهات: ما توافق عليه جميع الميليشيات المسلحة نحن موافقون عليه.

المنظمات المسيحية: ما توافق عليه المنظمات الفدائية نحن موافقون عليه.

المنظمات الفدائية: وما توافق عليه السلطة الشرعية نحن موافقون عليه.

السلطة الشرعية: وما توافق عليه القوات الدولية نحن موافقون عليه.

القوات الدولية: ونحن موافقون إذا وافقت قوات سعد حداد.

سعد حداد: وأنا موافق إذا وافقت ... إسرائيل.

نعم لم أسمع

نهض المواطن عرب بن عروبة بن عربان مبكراً من فراشه، فغسل وجهه بسرعة بالماء المثلج، وحلق ذقنه كيفما اتفق بشفرة مثلمة، وضرب شعره ضربتين بمشط مكسور، ثم ألقى نظرة عابرة إلى وجهه وقيافته، ثم إلى أمه وأخته، قبل أن يتأبط مصنف "قضيته" وينطلق إلى دوائر الدولة للمراجعة في شأنها. لقد استغفلهم صاحب البيت وتنكر لعشرين سنة من صباح الخير يا جار ومساء الخير يا جار وتقدم بدعوى قضائية لإخلاء المأجور وطردهم منه إلى الشارع.

ولكنه كان واثقاً أن الدولة لن تنساه في محنته هذه. وأن حربة الظلم لا يمكن أن تنفذ من كل ما في دوائر الدولة من موظفين وأختام ومصنفات لتستقر في قلبه. واستقل الباص، وقصد مكتب القاضي المختص بقضايا المواطنين في وزارة العدل.

الحاجب: نعم؟

المواطن: هل سيادة القاضي موجود؟

الحاجب: لا . انه مسافر.

المواطن: إلى أين؟

الحاجب: إلى جنيف لحضور مؤتمر الحقوقيين الدوليين.

المواطن: ومتى يعود؟

الحاجب: لا أعرف. وغرق في إحدى روايات أرسين لوبين.

واستقل المواطن باصاً آخر لمراجعة مسؤول آخر.

حاجب آخر: نعم؟

المواطن: هل الأستاذ فلان موجود؟

الحاجب: لا . انه مسافر إلى "سِيؤول" لحضور مؤتمر للتضامن مع الشعب الفلسطيني.

المواطن: ومتى يعود؟

الحاجب: لا أعرف. وانصرف إلى براد الشاي يعده ويخمره.

واستقل المواطن باصاً آخر لمقابلة مسؤول آخر.

السكرتيرة: نعم؟

المواطن: هل الدكتور فلان موجود؟

السكرتيرة: لا مسافر إلى لاغوس لحضور مؤتمر للتضامن مع الشعب الأرتيري.

المواطن: ومتى يعود؟

السكرتيرة: لا أعرف. وانصرفت إلى مجلة الشبكة.

واستقل المواطن باصاً آخر لمقابلة مسؤول آخر.

سكرتيرة أخرى: نعم؟

المواطن: هل الأستاذ الدكتور موجود؟

السكرتيرة: لا. انه مسافر إلى مالطا لحضور مؤتمر التضامن مع الشعب الكوري.

المواطن: ومتى يعود؟

السكرتيرة: لا أعرف. وغرقت في مجلة بوردا.

وعندما انتهى الدوام الرسمي وخلت الدوائر والمكاتب من الموظفين والمراجعين، ولم يبق فيها إلا الأوراق والمعاملات والمصنفات. وبعد أن تورمت قدماه من صعود الأدراج وهبوطها، لم يبق أمامه ما يفعله سوى الانتظار مرة أخرى مع مئات المنتظرين عند مواقف الباصات للعودة إلى بيته وأهله. وعندما ابتسم له الحظ وأقبل الباص شتم أثناء الصعود ونشل أثناء النزول.

وعندما وصل إلى مدخل الحارة فوجئ بأغراض بيته مكومة في الشارع وأمه وأخته تجلسان عليها. وكل منهما وضعت يدها على خدها وراحت تحدق في هذا العالم. ولما كان بطبعه هادئاً مسالماً فقد سأل بهدوء: متى حدث ذلك؟

فأجابته الأم دون أن تنظر إليه: بعد ذهابك بقليل.

فربت على كتفها مواسياً، وجلس القرفصاء على كومة الأغراض والمعاملة لا تزال تحت إبطه. ونظر بحنان إلى أخته الصامتة الشقية وسأل: ما بها؟

فقالت الأم: فوق همنا هذا، ونحن نخرج الأغراض والأمتعة، وفيما هي منحنية لحزمها، جاء أحد المارة وقرصها في مؤخرتها.

فقال متنهداً: بسيطة.

فقالت الأم: بسيطة، بسيطة. وماذا ستفعل الآن. والليل قد أقبل؟ هل ننام في الشارع؟

فقال لها: لا تبتئسي يا أمي إن الدولة لا يمكن أن تنساني. أنا واثق من ذلك.

وهنا أقبل نحوه شرطي يجرجر قدميه من التعب، وسأله وهو يخرج بعض الأوراق من حقيبته الجلدية: هل أنت المواطن فلان الفلاني؟

المواطن: نعم.

الشرطي: مطلوب لخدمة العلم.

وجبة اليوم وكل يوم

كان المحاضر العربي والمتجول في جامعات أوروبا والذي نزح عن وطنه منذ سنوات طويلة هرباً من الجوع والإرهاب، يتجول ذات مساء في شوارع إحدى المدن الأوروبية وكل ما حوله من ديمقراطية وعدالة ونظام متلألئا ومتناسقا مثل شجرة الميلاد.

المظلات فوق الرؤوس، والمارة فوق الأرصفة، والقانون فوق الجميع، يا لها من حضارة مهذبة ودود كالقطة المنزلية الأليفة.

ودخل أحد المطاعم الفاخرة ليتناول عشاءه، فاستقبله "الميتر" بابتسامته المعهودة للغرباء، وقدم لائحة الطعام ووقف بانتظار طلباته. فقال له الأستاذ الغريب: إنني متعب من القراءة والكتابة فاقرأ لي القائمة إذا أمرت.

قال "الميتر" بحماس: أمرك سيدي. عندنا ويسكي اسكتلندي، وبيرة ألمانية، وخبز كندي، وشوربة سويسرية، وجبنة فرنسية، ولحم أرجنتيني، وكافيار روسي، ومعكرونة ايطالية، وشاي سيلاني، وقهوة برازيلية، أما الأقداح فهي تشيكية والفوط والمناشف أمريكية.

فشعر الأستاذ بغربة عميقة عن كل ما قرئ له. وانتابه حنين جارف إلى أي شيء يذكره بوطنه وبلاده.

فسأله: أليس عندكم أي شيء عربي؟

فقال الميتر: لا. ليس عندنا أي شيء عربي سوى "الخدم".

وعاد إلى وطنه في أول طائرة حاملاً خبرته وشهاداته وأشواقه ليعوض ما فات من عمره كل هذه السنين. وما أن وصل إلى الفندق حتى ترك فيه كل شيء، ووضع يديه في جيوبه وراح يتجول حتى آخر الليل في شوارع المدينة التي أحبها وهجرها وهو لا يكاد يشبع من هوائها وأرصفتها وسمائها ونجومها وسط النقاش العالي وراء جدرانها. ودخل أحد المطاعم بعد أن أرهقه التجوال الطويل ليتناول عشاءه فهب إليه "الميتر" بابتسامته المعهودة مرحباً به وبطلباته فقال له الأستاذ الغريب: اقرأ لي ما عندك من أطعمة ومشروبات، فأنا كنت غائباً لسنوات وسنوات عن الوطن. وقد لا أعرف ما تعنيه الأسماء في الوقت الحاضر.

فقال الميتر: عندنا عرق لبناني وفول سوداني وكباب حلبي، وملوخية مصرية، وكبسة سعودية وفريكة عراقية وكوسكوس تونسي وكنافة نابلسية وبطيخ أردني وقهوة عدنية. والطبخ بجميع أنواعه عربي وكما ترى المطبخ شرقي والستائر شرقية والراقصة شرقية والأغاني عربية وكذلك الفرش واللباس عربي. وكذلك أنا وموظفو الاستقبال والطهاة والمحاسبون. كلنا عرب بعرب.

فتنفس الأستاذ الصعداء وقال: يعني ليس عندكم أي شيء أجنبي؟

اليتر: أبداً يا سيدي، ليس عندنا أي شيء أجنبي ما عدا صاحب المحل ...

* * *

وشمر عن ساعد الجد والعمل وانخرط في الحياة السياسية حتى شحمة أذنيه. ودخل في حزب وخرج من آخر. وانضم إلى هذه المنظمة، وعارض تلك الكتلة. تغذى مع المعارضة وتعشى مع الموالاة. عجن اليمين وخبز اليسار. احتك بالأطباء والمحامين والتجار والمقاولين. يستوضح ويستكشف ويستوعب. سابراً غور السياسة العربية قبل كامب ديفيد وبعده، مسترشداً بقرارات القمة الموسعة والمغلقة. آخذاً بعين الاعتبار نقط الخلاف ونقط الالتقاء بين الأنظمة المعارضة والأنظمة الموالية لهذا المعسكر أو ذاك. ثم افتتح عدداً من المشاريع في مختلف المجالات. ثم افتتح مطعماً ووقف على بابه. وكلما دخل زبون وسأله: هل اللحم والفراريج عندكم مذبوحة على الطريقة الإسلامية؟

يجيبه وهو يقدم له الشوكة والسكين: ليس عندنا سوى الإنسان العربي مذبوح على ألف طريقة وطريقة.

العقد الفريد

منذ أن صوبت إسرائيل إلى العرب بأنظمتهم اليمينية واليسارية على حد سواء أول مدفع وأول كمبيوتر وأول طائرة بدون طيار، وصوب العرب إليها أول انقلاب وأول ميكروفون وأول إنسان دون فك لأنه يميني ودون أضلاع لأنه يساري.

ومنذ أن استقلت الدول العربية عن الاستعمار وعن شعوبها في نفس الوقت، واحتكرت السلطة فيها الفكر والسياسة والاقتصاد والعلم والمعرفة والأدب والفن والرياضة والثروة المعدنية والبشرية والحيوانية، وجردت الإنسان من أي قيمة أو فعالية أو حافز، وتركته عارياً بثيابه الداخلية سياسياً وثقافياً وتاريخياً واقتصادياً بالطبع أمام العالم أجمع.

وكل طرف يحمل الآخر ما جرى ويجري في المنطقة.

فاليمين يضع اللوم على اليسار.

واليسار يضع اللوم على اليمين.

وأمريكا تضع اللوم على روسيا.

وروسيا تضع اللوم على أمريكا.

والإنسان العربي الذي يعيش مثل "الأطرش بالزفة" بالنسبة لكل ما جرى ويجري في المنطقة، يضع يده على خده ويتربع أمام شاشة التلفزيون وأمامه علبتا كلينكس، واحدة على اليمين للأنظمة اليمينية، وواحدة على اليسار للأنظمة اليسارية، ويبدأ من النشيد إلى النشيد:

آه من هذا المسلسل، وآه من هذه المسرحية.

آه إذا هرب لص، وآه إذا قبض على قاتل.

آه من حرب حزيران، وآه على حرب تشرين.

آه لزيارة السادات للقدس، وآه لعودته منها.

آه لاستعادة سيناء، وآه لاحتلال لبنان.

آه لحريق المسجد الأقصى، وآه إذا احترقت الطبخة.

ومن قبل:

قيس يبكي ليلي.

وليلى تبكي قيساً.

عنترة يبكي عبلة.

وعبلة تبكي عنترة.

وعبد الله الصغير يبكي الأندلس.

وأبو سلمى يبكي فلسطين.

وسعيد عقل يبكي لبنان.

ولبنان يبكي الجنوب.

والجنوب يبكي المقاومة.

والمقاومة تبكي العرب.

والعرب يبكون مصر.

ومصر تبكي الجميع.

آه كم ظلمنا فريد الأطرش واستهنا بآهاته وشهقاته ودموعه. انه الوحيد الذي سبق جميع الأحزاب والمفكرين والمستشرقين العرب والأجانب في فهم النضال العربي سياسياً واجتماعياً وتاريخياً وإيديولوجياً، وأدرك موازين القوى التي تتحكم بنتائجه ومستقبله أكثر من جميع مراكز الدراسات الإستراتيجية في العالم، وذلك عندما قضى حياته آهة آهة ودمعة دمعة. فقد كان بحق "كيسنجر العرب" طوال ربع قرن ونحن لا ندري.

ولذلك علينا أن نرد له اعتباره، ونعيد تقييم أغانيه ومواويله وآهاته. ونعلق صوره في مقر الجامعة العربية. ومجلس الدفاع المشترك، وخنادق المقاومة، وقاعة مؤتمر خلدة، ومنظمة أوبيك، ومكاتب البعثات الدبلوماسية في الأمم المتحدة، وان نستفيد من خبرته ونستلهم أسلوبه في مواجهة الأحداث والتعامل معها.

فمن الآن فصاعداً.

على كل مذيع عربي أن يبدأ نشرة الأخبار ... بآهة وينهيها... بموال.

وكل سفير معين حديثاً لدى دولة أجنبية، فور الانتهاء من تقديم أوراق اعتماده ومن تبادل الكلمات حول تطوير العلاقة بين البلدين والتعاون المشترك لإحلال السلام في المنطقة، عليه أن يشهق وينخرط في البكاء.

وكل عاشق، فور أن يلتقي بحبيبته ويبثها ما عنده من أشواق وأحلام بتأسيس بيت وتكوين أسرة يرفرف عليها الحب والهدوء والاستقرار، عليه أن ينخرط في البكاء.

وكل مدير مدرسة فور توزيع شهاداته على الخريجين وانتهائه من تقديم نصائحه وتمنياته لهم بالنجاح والتوفيق في حياتهم العملية لبناء وطن حر مستقل، عليه أن ينخرط هو وبقية الأساتذة في البكاء.

وكل رئيس وزراء جديد: فور الانتهاء من تلاوة بيانه الوزاري ومن تعهده بإرساء القواعد الديمقراطية، وتمتين الجبهة الداخلية والحفاظ على حقوق الشعب الفلسطيني وتحرير كافة الأراضي المحتلة.. وتوجيه التحية لشهدائنا الأبرار، عليه أن ينخرط وأعضاء وزارته في البكاء.

ووسط هذا البحر المتلاطم من الدموع ما زال الإعلام العربي يؤكد لنا يوماً بعد يوم أن المستقبل مشرق في المنطقة، ولكنه لم يوضح أبداً، إذا كان مشرقاً لنا أم لإسرائيل؟

فلتتدفق الدموع من العيون، والدماء من الجراح، حتى تصل إلى ركب السائرين كالكشافة وراء فيليب حبيب وغيره. فلن يتوقفوا أو يتراجعوا. ولن يستقر لهم رصيد في بنك. أو فرو على كتف. أو راقصة في ملهى، أو كافيار على مائدة، أو سيكار في فم، أو شاليه في منتجع، حتى تذاع أغنية "ختم الصبر بعدنا بالتلاقي" من إذاعة إسرائيل وإذاعات المنطقة في وقت واحد.

ومع ذلك لا شيء ينفجر حتى الآن من المحيط إلى الخليج سوى اسطوانات الغاز.

ولكن الضفاف لا تجري

لم يعد خافياً على أحد أن صمت الطناجر البخارية في معظم مطابخ الوطن العربي وامتناعها عن الصفير في الوقت الراهن ما هو إلا نوع من الاحترام والتهيب أمام صفير الطنجرة الكبرى في المنطقة وتصاعد البخار من فوهات مدافعها وميكروفوناتها عما قريب، بعد أن أخذ المدعوون يتسابقون إلى المائدة وكل منهم يحمل صحنه وشعاراته بيده.

وانه على الرغم من ملايين الأقدام الفتية التي تدق كعوبها على الأرض العربية صباح مساء فلا شيء يدب عملياً على طريق التحرير سوى عكاز بسام الشكعة.

وان ازدحام السجون العربية بالمناضلين والأبرياء الذين يدقون رؤوسهم بالجدران والأبواب المغلقة دون جدوى يعني أن الترجمة العملية للاءات الخرطوم هي: لا صلح، لا اعتراف، لا مفاوضات مع الإنسان العربي.

وأنه لو حلت الآن بالمنطقة وبالعالم أجمع أفدح المصائب القومية أو الجغرافية أو المصيرية، فان المواطن العربي – رداً على هذا المصير الذي آل إليه – لم يعد يقفز إلى بندقية ليحارب أو إلى الشارع ليتظاهر، أو حتى غلى السطوح ليتفرج، بل إلى آلة الجيب الحاسبة ويحسب:

هل تؤثر على تجارته إذا كان تاجراً؟

أو على محصوله إذا كان مزارعاً؟

أو على شهرته إذا كان كاتباً؟

أو على إعلاناته إذا كان صحافياً؟

أو على امتحاناته إذا كان تلميذاً؟

أو على ترفيعه إذا كان موظفاً؟

فإذا كان الجواب: "لا" فكل شيء على ما يرام. السماء صافية، والنسيم عليل، ولا ينقصه إلا وصلة غنائية أو مسرحية فكاهية ليقلب على قفاه من الضحك والانشراح وخلو البال.

وبناء على ما تقدم، فان المبعوث المتجول فيليب حبيب لا يسعى من خلال زياراته المتلاحقة للمنطقة، واجتماعاته الدائمة مع هذا وذاك إلى إعداد الترتيبات اللازمة لانسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان، أو لإيجاد الحلول العادلة لقضية العرب الكبرى. بل لإعداد الترتيبات اللائقة بجنازة العصر. لها ولعدالتها، مع الاهتمام بأدق التفاصيل والإجراءات المتعلقة بها وبجلال مظهرها مثل:

*من يعلن الوفاة رسمياً ومتى؟

*ومن سيعزي بها؟

*ومن سيقبل التعازي؟

*ومن سيبكي بصمت؟

*ومن سيغمى عليه عند الدفن؟

*وبماذا سيغطى الضريح الطاهر؟ بأغصان الريحان أم بأغصان الأرز أم بأغصان النخيل؟

فهذا زمن الاتفاق على كل شيء.

ولكنه ليس زماني، فأنا كالخيزران ... أنحني ولا أنكسر.

فحتى لو رأيت المشيعين والموقعين بأم عيني يمسحون حبر التواقيع عن بصماتهم بالجدران وثياب المارة.

ولو انتشرت سياط التعذيب على حدود الوطن العربي كحبال الغسيل.

وعلقت المعتقلات في زوايا الشوارع والمنعطفات كصناديق البريد.

وسالت دمائي ودموعي من مجارير الأمم المتحدة.

فلن أنسى ذرة من تراب فلسطين، أو حرفاً من حروفها، لا لأسباب نضالية ووطنية وتاريخية بل لأسباب لا تزال سراً من أسرار هذا الكون كإخفاقات الحب الأول! كبكاء الأطفال الرضع عند الغروب.

لقد رتبت حياتي وكتبي وسريري وحقائبي منذ الطفولة حتى الآن، على هذا الأساس. فكيف أتخلى عن كل شيء مقابل لا شيء. ثم أنني لم أغفر ضربة سوط من أجل الكونغو.. فكيف من أجل فلسطين؟

ولذلك سأدافع عن حقدي وغضبي ودموعي بالأسنان والمخالب.

سأجوع عن كل فقير.

وسأسجن عن كل ثائر.

وأتوسل عن كل مظلوم.

وأهرب إلى الجبال عن كل مطارد.

وأنام في الشوارع عن كل غريب.

لأن إسرائيل لا تخاف ضحكاتنا بل دموعنا.

ولا بناء من عشرة طوابق بل شاعراً يكتب في قبو.

ولا تخشى وحدة بين مصرفين بل بين جائعين.

ولا اتحاداً بين نظامين بل بين شعبين.

ولا القمم العالية بل ما يتجمع حولها في الوديان.

ولقد يكون هذا الزمان هو زمان التشييع والتطبيع والتركيع، زمن الأرقام لا الأوهام والأحلام. ولكنه ليس زماني. سأمحو ركبتي بالممحاة، سآكلهما حتى لا أجثو لعصر أو لتيار أو مرحلة. ثم أنا الذي لم أركع وأنا في الابتدائية أمام جدار من أجل جدول الضرب وأنا على خطأ. فهل أركع لبيغن أو لسواه أمام العالم أجمع بعد هذه السنين، وأنا على حق؟

إني لست مخلصاً لوطني وعروبتي وأناشيدي المدرسية وحسب بل إنني مخلص حتى لسعالي.

ولن أيأس، ولن أستسلم ما دام هناك عربي واحد يقول: "لا" في هذه المرحلة ولو لزوجته.

المؤتمر

بدون مناسبة، تخليت نفسي ناطقاً باسم الدول العربية، أتحدث إلى مندوبي الإذاعة والتلفزيون ومراسلي الصحف ووكالات الأنباء الأجانب عن أهم شؤون الساعة، ونحن نحتسي القهوة العربية الأصيلة في قاعة المؤتمرات الصحفية في الأمم المتحدة.

مراسل انكليزي: ما هو سبب إصراركم على تقديم القهوة المرة دون سواها في جميع المؤتمرات والمناسبات؟

حتى نظل نتذكر مرارة الواقع الذي تعيشه أمتنا.

يتحدثون في الغرب كثيراً هذه الأيام عن تطورات مريبة في المنطقة. ما تعقيبكم على ذلك؟

ليتحدثوا بما يشاؤون. فالشعوب في هذه البلاد معروفة بكثرة الكلام.

وأنتم؟

بالأفعال طبعاً.

مراسل أمريكي: ولكن هناك مؤشرات تؤكد تراجعكم عن بعض المواقف.

مستحيل، لأننا لم نتقدم أصلاً حتى نتراجع.

هل هناك ما يثبت ذلك؟

طبعاً، فمواقفنا السياسية واضحة وصريحة ونعبر عنها باستمرار في صحفنا. وهذه نماذج منها. تفضلوا ووزعوها على بعضكم. لا تجفلوا، معكم حق، هناك مشكلة اللغة، فنحن عرب ولا نفهمها فكيف أنتم؟

مراسل فرنسي: الصحافة في الغرب تجاري السرعة والتطور، فهي تقدم لقارئها أوسع المعلومات في أقل عدد ممكن من السطور. ولذلك بمجرد أن يتصفحها يلم بكل ما يجري في العالم، ثم يرميها حيث هو في الباص أو الميترو وينصرف إلى عمله.

من هذه الناحية نحن أرقى منكم. فالقارئ العربي يرمي الجريدة دون أن يقرأها.

مراسل سويدي: هل المعارضة مشروعة في الوطن العربي؟

طبعاً.

مراسل البرافدا: ولكن القوى الديمقراطية محرومة من إبداء أي رأي.

اسكت أنت. في بلادكم حتى الطرقات كلها باتجاه واحد.

المراسل السويدي: إن حرية التعبير والكلام والمعتقد، مضمونة لجميع فئات الشعب، ويستطيع أي مواطن عربي في أي بلد عربي ... أن يدخل على أي مسؤول ويقول ما يشاء، ولكن متى يخرج فهذه مسألة أخرى.

وعن ظروف المعتقلين وحالتهم الصحية والنفسية؟

مراسل البرافدا: دعونا من هذا الموضوع.

بل سنبقى فيه، إذ ليس عندنا ما نخجل منه، ثم نحن كما هو معروف عنا لا نخجل من شيء. فبالنسبة لظروف المعتقلين، فكل ما يقال هو افتراض ونسج خيال، لأنه إذا كان أهلهم وآباؤهم وأمهاتهم لا يعرفون عنهم شيئاً منذ لحظة اعتقالهم، فكيف يمكن للغرباء أن يعرفوا عنهم كل هذه المعلومات؟

مراسل أمريكي: لنعد إلى موضوع الساعة. إن الإعلام العربي لا يزال يصر على أن إسرائيل لم تحقق أهدافها من غزو لبنان.

طبعاً.

وما هي أهدافها كما تعتقدون؟

إننا لا نعرف أهدافنا، فكيف نعرف أهداف غيرنا.

مراسل أندونيسي: كنتم لسنوات خلت ناشطون جداً على الساحة الدولية، ومتحمسين جداً لمؤتمر جنيف، مؤتمر البندقية، مؤتمر الاشتراكية الدولية، للحوار العربي – الأوروبي، للحياد الايجابي وعدم الانحياز، ثم فتر نشاطكم وانعدم حماسكم. لماذا؟ هل يئستم من العالم؟

لا العالم يئس منا.

مراسل ايطالي: هل معنى ذلك أن قراراتكم الآن تصنعونها بمعزل عن جميع الظروف والتيارات الأخرى في العالم؟

ليس الآن. بل دائماً، قراراتنا وطنية، لكن قطع الغيار من الخارج.

مراسل ألماني: في هذا الزمن الذي هو زمن التحولات والتغيرات الكبرى، في السياسة والفكر والعلم والاقتصاد، نلاحظ أن جميع توجهاتكم ومنطلقاتكم ما زالت كما هي، ولم يتغير أي شيء جذرياً في الوطن العربي.

ألا يكفي أن خريطته تتغير كل يوم.

مراسل هولندي: ما هو موقف الدول العربية من الثورة الإيرانية؟

نحن لا نتدخل في شؤون الآخرين.

إذن من وراء حرب لبنان، وحرب الخليج، والصحراء الكبرى وغيرها؟

الأصابع الأجنبية في المنطقة.

والأصابع العربية ماذا تفعل الآن في المنطقة؟

تعزف البيانو.

مراسل رياضي: تولون الرياضة في بلادكم اهتماماً خاصاً، تنفقون الملايين على الملاعب والمباريات، وتأهيل اللاعبين، ومع ذلك فقلما فاز فريق عربي بجائزة تذكر. لماذا؟

أنا شخصياً، لم أكن متحمساً في يوم من الأيام لهذا الاهتمام الزائد بالرياضة وخاصة كرة القدم. لأن العربي بطبعه لا يحب اللعب إلا بالقضايا الكبرى.

مراسل صيني: إلى أين وصلت خطواتكم لتحقيق الوحدة العربية؟

يكفينا الآن التضامن العربي.

ولكن ما يجري الآن على الساحة العربية يوحي بعكس ذلك. فلبنان يعمل على جبهة، ودول الرفض على جبهة، والدول المعتدلة على جبهة، والمقاومة على عدة جبهات. ما معنى ذلك؟

معناه استقلالية الرأي وديمقراطية التوجه. ثم المهم المحصلة النهائية لهذه الجهود وأين ستصب؟

مراسل لبناني: والله لن تصب إلا في نهر الليطاني.

ولكنه سيعود. نهر الليطاني سيعود، ونهر الأردن، والنيل نفسه سيعود.

إلى الاحتلال؟

بل إلى الأرض العربية والمصير العربي.

مراسل هندي: إذن لا تستبعدون مصر من العودة؟

طبعاً لا. ولكن صورة كامب ديفيد لا تغيب عن ذهن واحد في هذه المرحلة.

هل من كلمة توجهونها للنظام المصري بهذه المناسبة؟

أرجو المعذرة، فالعلاقات مقطوعة بيننا كما تعرفون، والظروف دقيقة جداً.

مراسل فني: إذا كانت الكلمة تسبب إحراجاً، فما رأيك بإهدائه أغنية باسم الدول العربية؟

إذا كان لا بد من ذلك، فإنني أهديه في هذه المرحلة أغنية فيروز "تعا ولا تجي" .

الجميع: معنى ذلك أنك متفائل بالمستقبل؟

كل التفاؤل.

وسعيد بالعمل العربي الحالي على الساحة العربية؟

كل السعادة. ثم أنا في الأصل اسمي سعيد، وأبي مسعود وأمي سعدى وأختي سعدية. وان جاءني ولد فسأسميه "سعدان" .

إشكالات صحية

نصيحة لكل مواطن عربي يمينياً كان أم يسارياً، مع الحل السلمي أم مع الحل العسكري، اذا ما أصابه عارض صحي، ألا يراجع طبيباً مختصاً.

كنت أردد هذا الكلام وسواه. وأنا في طريقي إلى آخر عيادة رسمية أو خاصة لم أطرق بابها بعد. وكانت كأية عيادة في العالم الثالث، أرضها مغطاة بالمرضى وجدرانها مغطاة بالشعارات، وعندما جاء دوري امتثلت على الفور بين يدي الطبيب ومعي كل الوثائق التي تثبت خطورة حالتي وقلت له: دكتور، استحلفك بالله، بالبنسلين، بالترومايسين، وبقضية قضايانا الكبرى فلسطين، أنقذني. أذني مسدودة منذ أمد طويل. فسألني الدكتور بصوت مرتفع: منذ متى يا بني؟

– لا أعرف يا دكتور، كل ما أعرفه أن قناة السويس فتحت وأذني لم تفتح.

– هل أصبت بمثل هذه الحالة في صغرك، أو بالأحرى هل تحمل من طفولتك مرضاً معيناً؟

– أبداً، لم أحمل من طفولتي حتى الآن سوى هموم القضية وكنت دائماً سليم الجسم والطوية، ودائم البهجة والسرور لأن الله الحبيب خلقني في هذه المنطقة الحبيبة. وكنت طوال حياتي، إذا ما طنت أذني أو التهب

حلقي نتيجة الإفراط في السهر والتدخين والشراب، أعرج على أقرب صيدلية وآخذ حبة أو ملعقة شراب وينتهي الأمر عند هذا الحد، إلى أن التقيت ذات يوم بأحد أصدقائي المثقفين وأنا أهم بدخول إحدى الصيدليات لمثل هذه الغاية: فسألني باهتمام مما أشكو، فقلت له لا شيء مجرد "وشة" خفيفة في الأذن ... برشامة وينتهي الأمر: فاستوقفني بحزم قائلاً: لا، راجع طبيباً مختصاً. لقد تطور الطب كثيراً في السنوات الأخيرة، وعلينا نحن المثقفين أن نؤمن بالاختصاص، ونشجع المختصين ونسهل عليهم مهمتهم. لا تقاطعني. وإذا لم تفعل بنصيحتي، لا أنت صديقي ولا أنا صديقك.

وفي اليوم التالي راجعت طبيباً مختصاً. وفي الأسبوع التالي كان عندي من التحاليل والصور الشعاعية والوصفات الطبية ما يعادل مؤلفاتي كلها.

لقد كان له ما أراد واستأصل اللوزتين. وكل ما أذكره بعد ذلك هو أنني منذ غادرت المستشفى وقال الطبيب وهو يودعني "معافى إن شاء الله" لم أعرف طعم العافية. فبعد يومين التهبت أذني اليسرى واليمنى، والتهبت المنطقة، وصارت الوشة اثنتين. وكلما شربت قدح ماء، يعود بعد قليل ليخرج من فمي وأنفي. أما بالنسبة لانسداد الأذن فقد أصبح عندي تقليداً لا يناقش فيه . فصرت لا أسمع ما يقال ولا يفهم ما أقول. ولما كنت جليس مقاهي ومدمن مناقشات، فكنت لا تراني إلا ويدي حول صيوان أذني متسائلاً بصوت مرتفع عن كل كلمة تقال ومستفسراً عن كل رأي يطرح على طاولتي وطاولات الآخرين. ولما كانت معظم مناقشات المقاهي سياسية، فقد أخذ روادها يظنون بي الظنون، واعتقدوا أنني من المقاهي سياسية، فقد أخذ روادها يظنون بي الظنون، واعتقدوا أنني من إياهم، ولذلك صاروا يتهربون من أسئلتي إذا سألت، ويصمتون إذا ما دخلت

وكنت لا أنفك أراجع الطبيب تلو الطبيب والمستشفى تلو المستشفى دون نتيجة، لقد كانوا يتقاذفونني ككرة القدم، شعبية الأذنية حولتني إلى العينية، ومن العينية إلى العصبية، ومن العصبية حولوني إلى الداخلية، ولو تابعت الانصياع لأوامرهم لحولوني إلى الخارجية والدفاع

ولذلك عيل صبري وسلمت أمري لله، ورتبت أموري على أساس أن أعيش بقية عمري باذن واحدة خاصة وأنه لم يعد في المنطقة ، بشعاراتها وسياساتها وخطبائها وإذاعاتها وأخبارها وأغانيها ما يستحق أن يسمع

لكن يا دكتور، لاحظت في الآونة الأخيرة أن الضجر قد زال من النفوس وحل محله الهياج والترقب والانفعال، وحمى وطيس المناقشات من جديد في المقاهي. واستنفر الجميع حول أجهزة الإذاعة والتلفزيون، فثار فضولي خاصة وأنه صار يتناهى إلى سمعي بكثرة اسم سادات سادات – بيغن بيغن، فقلت: الحالة غير طبيعية ولا بد أن أنباء هامة تتواتر في المنطقة، ويجب أن أسمعها، وبأذني الاثنتين، لا بأذن واحدة. فقال لي الطبيب بصوت مرتفع كعادته منذ أول المعاينة: من الأفضل ألا تسمعها. فقلت له: ما الفائدة؟ إذا كنت سأعيش نتائجها

فقال: هل قمت بتحليل دم؟

طبعاً. أنظر هذه هي التحاليل وهذه هي الأدوية وهذه هي الصور الشعاعية. أنظر هذه صورة للجيوب الأنفية، وهذه صورة للرئتين، وهذه صورة للأذن الملتهبة ... وهذه ... لا لا هذه لا علاقة لها بالموضوع

فسألني مقطباً: ما هذه الصورة العجيبة التي تحاول إخفاءها وراء ظهرك

فقلت له: هذه صورة للوضع السياسي في المنطقة ولا علاقة لها بالموضوع

فقال وهو يحدق إلى الصور والتحاليل: من الواضح أن في أذنك سوائل تؤدي إلى انسدادها. ماء أم زلال أو ما شابه

فقلت له: حتى لو كان فيها بترول يجب أن تفتح

فقال بعصبية: يا بني أذنك بحاجة إلى عملية جراحية

فقلت له: وأنا استلقي بثيابي على طاولة العمليات: إنني جاهز، هات أمواسك ومشارطك

قال: انهض لا يوجد عندي مخدر

قلت: لا داعي لذلك، إنني مخدر منذ عام 1948

الفراشة

مواطن عربي قتل في إحدى المظاهرات الشعبية ابان الحماسة الوطنية التي اجتاحت المنطقة بعد الاستقلال. يشتاق وهو إلى جوار ربه إلى زوجته وأطفاله وبلاده. فترف روحه من الشوق والفضول في كبد السماء، ويجري الحوار التالي مع زوجته التي كادت أن تنساه:

الزوج: كيف الصحة والأولاد والجيران؟

الزوجة: بخير. وأنت؟

الزوج: وهل هناك أروع من أن يموت الإنسان في سبيل بلاده ومبادئه. ولكن فراقكم أدمى قلبي أكثر من جراحي.

الزوجة: وماذا نقول نحن. آه لو تعرف ماذا فعلت خالتك أم حمود، وماذا قالت عمتك أم حميدان عندما اذيع نبأ موتك.

الزوج: لا أريد أن أستنفذ المكالمة في أخبار شخصية. أريد أن أسأل عن القضايا الكبرى التي قضيت من أجلها. طمنيني: ما أخبار حركة التحرر العربي؟

الزوجة: عال.

الزوج: وحركة عدم الانحياز؟

الزوجة: ممتازة.

الزوج: والحرية في الوطن العربي؟

الزوجة: بتبوس إيدك؟

الزوج: والسجون؟

الزوجة: فارغة.

الزوج: عظيم. عظيم. لأن حلمي الكبير كان الاستفادة من تلك القاعات الرهيبة بعد إخلائها، إما كمسارح لرقص الباليه، أو معاهد لتطوير الموسيقى الشرقية. فبماذا تستغلونها الآن؟

الزوجة: ما زلنا حائرين بين الباليه والموسيقى.

الزوج: عظيم. عظيم. وبرامج الإصلاح الزراعي هل اكتملت؟

الزوجة: إلى حد كبير.

الزوج: إذن أصبح كل شيء متوفراً ورخيص الثمن بالنسبة للطبقة الكادحة.

الزوجة: طبعاً وخاصة الفاكهة.

الزوج: رائع. رائع. ولكن حذار، لا تكثروا من التفاح. فهو يسبب "الكتام" ولا تسرفوا في التهام الموز على الطالع والنازل فهو يزيد نسبة النشويات ويشوه أجسام العمال العرب ويعيقهم عن أداء واجبهم.

الزوجة: اطمئن من هذه الناحية.

الزوج: وبالنسبة للمشاريع الاقتصادية الكبرى؟

الزوجة: كالمطر. ونحن الآن نقطف ثمارها.

الزوج: إذن فالأموال العربية لعبت دورها كما يجب. فنحن أغنياء كما أذكر.

الزوجة: بل من أغنى أهل الأرض. ولولا هذه الأموال لانهار الاقتصاد البريطاني والأمريكي، منذ سنوات.

الزوج: "بعد تفكير" على كل ما دامت هذه الأموال فائضة عن حاجة الوطن العربي، بعد أن قضى على الفقر والجهل والأمية والبطالة، فلا مانع من مساعدة الغير. إنها من شيم العرب كما تعرفين؟

الزوجة: هل تريد شيئاً آخر؟

الزوج: ما أخبار فلسطين؟

الزوجة: ارفع صوتك إنني لا اسمع.

الزوج: لا استطيع ذلك. وإلا استيقظت أرواح الشهداء العرب من حولي.

الزوجة: معك حق. وأنا تعبت والطبخة على النار. ماذا تأكلون عندكم؟

الزوج: لا تغيري الموضوع. ما أخبار فلسطين؟

الزوجة: ولو، وهل هذا سؤال يسأل بعد هذه السنين؟

الزوج: اعرف ذلك. ولكنني ما زلت قلقاً على اليهود. لا تلقوهم في البحر. خيروهم بين العيش بيننا بسلام أو العودة إلى بلدانهم الأصلية.

الزوجة: تكرم.

الزوج: ولا تقسوا عليهم أثناء التسفير، فالعفو عند المقدرة، لأن العرب كما تعلمين أثناء الفتح الإسلامي وأثناء حربهم مع الفرس والروم كانوا ...

أحد الجيران: ولك سد بوزك العمى شو أجدب.

سوبر ماركت الشرق الأوسط

طالب: عندك ديوان (قرار الموجة) لنازك الملائكة؟

البائع: عندي ديوان (كيف تركب الموجة).

الطالب: من تأليف من؟

البائع: أبرز الشعراء والكتاب العرب.

* * *

عامل: عندك خبز؟

البائع: بالخبز وحده لا يحيا الإنسان.

* * *

مثقف: إذن أعطنا كيلو حرية.

البائع: ليس عندي سوى حرية استيراد وتصدير.

المثقف: وحرية التعبير؟

البائع: بالمشمش.

* * *

المرضعة: عندك "حفاضات" أجف من القماش بمرتين؟

البائع: كان عندي كمية كبيرة ونفذت. الطلب عليها كثير هذه الأيام.

المرضعة: عجيب، مفقودة في جميع المحلات. ما السبب؟

البائع: لأن الكبار بدؤوا يتهيؤون لاستعمالها قريباً.

المرضعة: لماذا؟

البائع: المرحلة العربية المقبلة تتطلب ذلك.

* * *

مراهق: عندك صورة لنجلاء فتحي في باريس؟

البائع: لا. عندي صورة بيغين في القاهرة، وشارون في صيدا.

مراهق: بالمايوه؟

البائع: لا، بالبكيني.

* * *

مهاجر: عندك شريط "لبنان يا أخضر حلو" ؟

البائع: لا.

المهاجر: "خضرا يا بلادي خضرا".

البائع: لا.

مناضل: عندك كتاب "قصر الحمراء مفخرة العرب" ؟

البائع: لا.

مناضل: قصيدة "وللحرية الحمراء باب" ؟

البائع: لا، لا. افهموا من أول كلمة، لم يعد هناك ما هو أخضر أو أحمر سوى إشارات المرور.

* * *

مؤرخ: عندك نظارات مقربة؟

البائع: لا.

المؤرخ: مبعدة؟

البائع: لا.

المؤرخ: يجب أن أعثر على واحدة بأية طريقة.

البائع: ولماذا؟ فلسطين لن تراها، قريتك لن تراها، الحرية لن تراها، الربيع لن تراه، المستقبل لن تراه، فلماذا تتعب أنفك البائس بحملها؟

* * *

مطلقة: عندك فيلم " أريد حلاً " لفاتن حمامة؟

البائع: كل الحلول بيد أمريكا.

* * *

مقاول: عندك خشب معاكس وحديد مبروم؟

البائع: لا، عندي ظروف معاكسة وشعب مبروم.

المروحة والغبار

سؤال: أيها الشاعر هل تريد هدم القصور على رؤوس أصحابها؟

جواب: لا، أريد فقط أن أتنهد أمام أسوارها.

سؤال: أيها الصحافي، هل تريد هدم السجون؟

جواب: لا. أريد فقط أن لا أكون من نزلائها.

سؤال: أيها المسرحي، هل تريد الاستيلاء على كرسي وزير أو سفير؟

جواب: لا، حتى عند الحلاق صرت أجلس على طراحة.

سؤال: أيها الكاتب بشكل عام، هل تريد مزرعة وجياداً وكلاب حراسة؟

جواب: لا، ولكنني لا أريد أن أنبح معها.

أيتها المرحلة العربية المباركة، يا ذات القلب الأبيض والأظافر الحمراء.

الخروف يعيش على الكلأ.

والأرنب على الجزر.

والثعلب على الدجاج.

والغراب على الأطلال.

والكاتب الذي هو، ليس خروفاً، ولا أرنباً، ولا ثعلباً، ولا غراباً، وإنما إنسان له أنف وعينان، وأذنان، ومعدة، وبنكرياس، وحجاب حاجز، وأظافر، وزائدة دودية، وكرامة ... على ماذا يعيش؟ على الخطابات؟

لأنني منذ رأيت الطيور تأكل الحب ، والإنسان يأكل الطيور، قلت: المعدة هي برلمان العالم.

ثم القاتل يعبر عن رأيه بمسدسه.

والجلاد بسوطه.

والحداد بمطرقته.

والغانية بحواجبها.

والراقصة بخصرها.

والكاتب الذي هو ليس قاتلاً، ولا جلاداً، ولا حداد، ولا غانية ولا راقصة، بماذا يعبر عن رأيه؟ وكيف؟ صهيلاً كالجواد؟ أم عواء كالذئب؟

في نهاية كل سطر، جندي نازي بمعطفه الرمادي وبندقيته الطويلة.

في نهاية كل قصيدة ، حاجز تفتيش.

في نهاية كل رواية، مجلس طوارئ.

وفي نهاية كل مسرحية، مؤتمر قمة.

فإذا لم يستطع الكاتب العربي، وفي أدق مرحلة تمر بها أمته، أن يعبر عن رأيه لا في الماضي، ولا في الحاضر، ولا في المستقبل، ولا في حرب لبنان، ولا في حرب الخليج، ولا في حرب الصحراء، ولا عن كامب دايفيد، ولا عن المقاومة، فماذا يكتب؟ عن وحام الأميرة ديانا!

ثم في هذه المرحلة بالذات حيث تفيض الأرض العربية بالدماء والأشلاء، والسماء بالرائحين والغادين، لعقد صفقات البيع والشراء، اذا لم يستطع أن يتحرك لا أدبياً، ولا مهنياً، ولا إقليميا، ولا وحدوياً، فهل يضع سلة بيض في زاوية المكتب، أو المطبعة، ويرقد فوقها كالدجاجة حتى تمر هذه المرحلة؟

* * * *

مأساة الكاتب العربي، أنه يقضي زهرة شبابه وكهولته، وشيخوخته، وهو يقفز لاهثاً، مذعوراً من الصحافة، إلى المسرح، إلى الشعر، إلى القصة، إلى الصفحة الأولى، إلى الصفحة الأخيرة. وفي نهاية العمر، لا يجد ما يتبلغ به سوى دمه، وحطام أظافره.

ومع ذلك، ما زالت الجمارك والموانئ العربية، تستقبل على مدار السنة آلاف المطابع الجديدة. وما زالت هذه المطابع تهدر على مدار الساعة، وتقذف كل يوم وكل ساعة بآلاف الكتب الجديدة، والمجلات الجديدة الأسماء الجديدة. ولكن وأنت تطالع هذه المجلة، وتتصفح ذلك الكتاب لا ترى غبار القدم بين السطور فحسب، بل خيوط العنكبوت في كل ما حولك بين خيوط المطر، وتويجات الزهرة، وأصابع الطفل الوليد.

ولذلك ما جدوى إصدار كتب جديدة؟

وشق طرق جديدة؟

وركوب سيارات جديدة.

وإجراء انتخابات جديدة.

بل ما جدوى أن ننتعل أحذية جديدة.

ونرتدي معاطف جديدة.

ومايوهات جديدة.

والوطن عتيق ... عتيق ...؟

صلاة بيد واحدة

نحن الآن نستعد لحضور أحد المؤتمرات الثورية الخطيرة المنعقدة في إحدى دول المنطقة، لدراسة أهم ما تعانيه شعوبها وما تحلم به منذ أجيال.

ها هم أعضاء الوفود الذين يمثلون مختلف البلدان النامية بكل اتجاهاتها وسياساتها وتطلعاتها، يتأبطون مصنفاتهم ويتوافدون إلى قاعة المؤتمر بوجوه جادة وجباه مقطبة، دلالة التفكير العميق والوعي الشامل لأحداث التاريخ. وها هو رئيس المؤتمر يعانقهم بشوق ويصافحهم بحرارة بين حشود من الصحفيين والمراسلين والمخبرين والمصورين. وبعد كلمة ترحيبية قصيرة يطلب إخلاء القاعة إلا من رؤساء الوفود فقط لأن الجلسات ستكون سرية وعلى غاية كبيرة من الأهمية.

أغلقت الأبواب وأسدلت الستائر، وأخذ رؤساء الوفود أماكنهم على مائدة طويلة والفوط على صدورهم، وما هي إلا لحظات حتى غطيت المائدة بالصحون والأقداح والأباريق. وتوافد الخدم والطهاة وعلى راحاتهم صواني الأرز والدجاج واللحم والسمك والخضار والكبب والخردل والكافيار، وغير ذلك من ضروب المشهيات والمقبلات، ولما انتهى المؤتمرون من التهام كل ما على المائدة، واضطجعوا قليلاً إلى الوراء وفكوا أزرار ستراتهم وقمصانهم لتأخذهم كروشهم دورها الطبيعي في المناقشات، نهض رئيس الجلسة والفوطة لا تزال على صدره وقال: والآن سنناقش مشكلة الجوع في العالم الثالث.

وبعد أن انتهى المجتمعون من دراسة هذه المشكلة من جميع جوانبها الاقتصادية والتسويقية والسياسية، واتخذوا عدداً من المقترحات والتوصيات وشكلوا عدداً من اللجان لدراسة هذه المقترحات والتوصيات، انتقلوا إلى الموضوع التالي في جدول الأعمال.

وبعد مرور ثلاث ساعات دون أن يتمكن رئيس الجلسة من ترتيب أماكن الجلوس حول طاولة المناقشات، وبعد أن هدد كل من يشهر مسدساً بطرده من الاجتماع، اضطر إلى إحضار طاولات مصغرة عن طاولة المناقشات الرئيسية بعدد رؤساء الوفود. وبعد أن تصدر كل منهم طاولة مستقلة وأمامه ميكروفونه المستقل ومنفضته المستقلة وتصوراته المستقلة. مترفعاً حتى عن النظر إلى أي أحد من زملائه، نهض رئيس الجلسة وقال: والآن ... سنناقش موضوع الوحدة العربية.

وبعد دراسة مستفيضة لهذا الموضوع من كافة أبعاده التاريخية والفكرية والإسلامية والمسيحية، وبعد أن اتخذ المجتمعون عدداً من المقترحات والتوصيات، وشكلوا عدداً من اللجان لدراسة هذه المقترحات والتوصيات، انتقلوا إلى الموضوع التالي في جدول الأعمال.

وبعد أن أخذ كل من رؤساء الوفود مكانه على طاولة المناقشات ووضع أمامه ملفاته ووثائقه ومقترحاته واستطلاعاته، بالنسبة للماضي والحاضر والمستقبل، نهض رئيس الجلسة ووضع على فم كل واحد من الحضور شريطاً لاصقاً يصل من الأذن إلى الأذن وقال: والآن سنناقش موضوع الحرية في الوطن العربي.

وبعد مناقشات صريحة وعميقة وشاملة لجميع جوانب هذا الموضوع، اتخذ المجتمعون بعدها عدداً من المقترحات والتوصيات، وتقديم المقترحات والتوصيات اللازمة بشأنها.

وبعد أن أنهى المؤتمر كافة الموضوعات المدرجة في جدول أعماله، عقد جلسة ختامية بحضور أعضاء الوفود المرافقة والصحفيين والمراسلين والمراقبين ... وقد أذاع رئيس المؤتمر البيان المشترك التالي:

"في جو يسوده الوئام والتفاهم وروح التبصر والمسؤولية، عقد المؤتمر جلساته من تاريخ كذا إلى تاريخ كذا ... وبعد أن درس كافة المشكلات المعروضة عليه، واطلع على كافة التقارير الواردة إليه، وناقش كافة المقترحات والتوصيات الموجودة بين يديه، وبعد أن درس ونظر ومحص واتخذ أولاً وثانياً وثالثاً وعاشراً من القرارات يعلن ما يلي:

وأخيراً تكشفت النوايا العدوانية التي تبيتها الدول الأجنبية ضد الشعب العربي ليبقى متخلفاً ممزقاً جائعاً يرزح تحت كابوس لا ينتهي من القلق والرعب والجوع واليأس، حتى لا ينهض من كبوته ويشارك في صنع قدره وقدر الإنسان في هذا العالم. ولذلك فإننا لن نسمح بعد الآن لأمريكا أو لروسيا أو لأوروبا، ولا لأي بلد أجنبي مهما كانت قوته ونفوذه بأن يعبث بأمن هذا الشعب وحريته وكرامته، لأن هذا من اختصاصنا.

القفازات البيضاء

عاد هركول بوارو العربي إلى مكتبه متعباً وسأل سكرتيرته فاطمة إذا كان هناك من سأل عنه في غيابه فنفت ذلك. وتصفح الرسائل والبرقيات الواردة إليه بعدم اكتراث وألقاها جانباً لخلوها من أي شيء هام ثم تمدد على أريكته المعهودة وألقى قدميه بحذائهما على الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية الصادرة

ذلك الصباح وراح ينفث دخان سيجارته في الهواء وهو يحلم بالقضية الكبرى التي تهز الرأي العام وتنقذه من خموله الجنائي الذي طال أمده، وتعيد له شهرته الآتية واسمه المدوي في عالم الإجرام والمجرمين كألمع مخبر خاص.

وفجأة رن جرس الهاتف رنيناً متواصلاً ملحاحاً فرفع السماعة واستوى في مقعده مستبشراً متحدثا:

صوت: الأستاذ هركول بوارو العربي؟

بوارو: هو شخصياً.

الصوت: سيدي أنا مفتش الأمن في قطار الشرق البطيء، وقد وجدنا أحد الركاب مقتولاً هذا الصباح وأريد مساعدتك للقبض على الجاني.

بوارو: ومن هو المجني عليه؟

الصوت: مجهول الهوية.

بوارو: ألم تعثروا في أمتعته أو في أو في جيوبه على أي شيء يثبت شخصيته؟

الصوت: لم نجد شيئاً ذا قيمة سوى خريطة مهترئة لفلسطين.

بوارو: وبقية الركاب؟

الصوت: معظمهم عرب.

بوارو: وماذا يفعلون الآن؟

الصوت: يؤنبونه.

بوارو: أنا قادم فوراً، لا تدع أحداً يغادر القطار.

وبسبب تجمع معظم المسافرين فوق جثة المجني عليه وتدافعهم لتقبيله ولثم جبينه وذرف الدموع على صدره لم يستطع هركول بوارو العربي لفت الأنظار إلى قدومه، كما أن أوامره بالتزام الصمت والهدوء لمباشرة مهمته ضاعت سدى وسط صيحات الثأر وحالات الإغماء، وتمزيق الثياب، ودق الصدور بالقبضتين، وتعداد مآثر الفقيد، مثل: يا عمود البيت، يا جسر المحبة، يا جسر العودة، يا زهرة شبابنا، يا معيل كفاحنا.

ولذلك استغل هذه الفرصة وانتحى بالمفتش جانباً.

بوارو: في أي مقعد كان يجلس؟

المفتش: في الحقيقة لم يكن له مقعد محدد. كان يجلس تارة هنا وتارة هناك، إلى أن انتهى به المطاف إلى الممر حيث يرقد الآن رقدته الأبدية. انه يعوق الحركة في حياته وفي موته كما ترى.

بوارو: عجيب. لا بصمات، لا آثار عنف. لا خصلة شعر. حتى ولا رماد سيجارة.

راكب: نحن لا ندخن. الدخان يضر بالصحة.

بوارو: ومن ذلك الشخص الممدد إلى جانب المجني عليه؟

المفتش: لا أعرف، ولكنه يقول أنه يريد أن يدفن معه.

بوارو: انهض يا هذا وعد إلى مقعدك.

الراكب: مستحيل. أريد أن أدفن معه. هاتوا رفشاً ومجرفة. لا استطيع الحياة من بعده.

بوارو: أين كنت عندما اكتشفت الجثة؟

الراكب: كنت في مقعدي استمع إلى إذاعة فلسطين. آه يا حبيبتي يا فلسطين!

بوارو: وأنت؟

راكب آخر: كنت أقرأ ديوان "عاشق فلسطين" لمحمود درويش.

بوارو: وأنت؟

راكب آخر: كنت أقرأ ديوان "الولد الفلسطيني" لأحمد دحبور.

بوارو: وأنت؟

راكب آخر: كنت أطالع تحقيقاً صحفياً عن ممارسات إسرائيل العنصرية داخل الأراضي العربية المحتلة. آه كم سيتحمل هذا الشعب ويتحمل!

بوارو: وأنت؟

راكب آخر: كنت استمع إلى أغنية "عائدون" لفيروز.

بوارو: وأنت، متى نمت ليلة الحادث؟

راكب آخر: في موعد إطفاء الأنوار، فأنا نظامي جداً وفوراً رحت أحلم بليمون يافا وبرتقال حيفا.

بوارو: خذوا أحلامه للتحليل.

المفتش: أمرك. سيدي.

بوارو: وأنت متى نمت ليلة الحادثة؟

المفتش: سيدي هذا يساري لا ينام ولا يدع أحداً ينام.

بوارو: ومن ذلك الذي يقف وحيداً في آخر القطار ويحك ظهره بالجدران والمساند؟

المفتش: إنه جربان سياسياً. لا يقترب من أحد ولا أحد يقترب منه.

بوارو: وذلك الممتقع الوجه والمتهالك على الأرض؟

المفتش: مغمى عليه.

بوارو: شمموه بصلاً.

المفتش: شممناه بصلاً، تراباً، برتقالاً وكل ما نعرف من منعشات دون جدوى. ولكن عندما شممه أحد زملائه دفتر شيكات صحا.

بوارو: أنت يا هذا، ماذا فعلت عندما سمعت بالحادث؟

راكب آخر: دعوت فوراً لرأب الصدع وتناسي الخلافات وحشد الطاقات.

بوارو: وأنت؟

راكبت آخر: انهمرت الدموع من عيني ولم تتوقف حتى الآن ولن تتوقف حتى يكتشف المجرم الأثيم وينال قصاصه العادل.

بوارو: ماذا تعشيت في مثل هذا اليوم قبل 25 عاماً؟

الراكب: وما علاقة هذا بالحادث؟

بوارو: أنا أسأل وأنت تجيب.

الراكب: لم نكن نتعشى في تلك الأيام.

بوارو: لماذا؟

الراكب: كانت أياماً عصيبة يا سيدي.

بوارو: ماذا كنت تعمل؟

الراكب: موظفاً بسيطاً في أحد المصارف.

بوارو: والآن؟

الراكب: عندي مصارف.

بوارو: وكيف وصلت إلى ما أنت عليه؟

الراكب: من دعاء الوالدة.

بوارو: وأنت ما هي مهنتك؟

راكب آخر: محسوبك موظف بسيط في القضايا العامة.

بوارو: هل هذه أول مرة تسافر فيها بالقطار؟

الراكب: وآخر مرة. ولن أسافر بعد الآن إلا بطائرتي الخاصة.

بوارو: عندك طائرة خاصة، من أين لك المال لتشتري طائرة خاصة؟

الراكب: من راتبي يا سيدي.

بوارو: من أين أتيت بالمال؟

الراكب: في الحقيقة، في الواقع، في هذه الظروف العصيبة ...

بوارو: كفى. كفى. كيف كانت علاقتكم بالمجني عليه؟

الراكب: أخوية يا سيدي. كانت أحاديثنا أخوية وجلساتنا أخوية وسهراتنا أخوية ، حتى أننا كنا جميعاً نقرأ رواية "الإخوة كارامازوف".

* * *

وبعد أن جمع ما حصل عليه من معلومات اختلى إلى نفسه في مكتب المفتش وراح ينتقل بتحليلاته من متاهة إلى متاهة. وفجأة لمعت في ذهنه فكرة وقف لها شعر رأسه: لقد تذكر قصة "جريمة في قطار الشرق السريع" لأغاثا كريستي، التي كان فيها عدد الطعنات في جسد الضحية مطابقاً لعدد الركاب تماماً، وفي الحال خرج من المقصورة وأعاد التجربة. وعندما وجد أن عدد ركاب القطار مساو لعدد الطعنات في جسد المجني عليه صعق وانطلق هارباً من القطار وهو يصرخ: لن أصدق عيني. لن أصدق أذني. لن أذهب إلى عملي بعد الآن. لن أعود إلى بيتي. لن أسدد ديوني. لن أرسل أطفالي إلى الحضانة. ليخرج أبو سلمى وغيره من شيوخ العودة من قبورهم وليذهبوا إلى الحضانة.

محاضر الليل

كانت قاعة المحاضرات تغص على اتساعها بمن توافدوا إليها بلهفة الظمآن للمطر من مثقفين وأميين وعمال وموظفين وفلاحين وحرفيين وطلاب ناجحين وراسبين، وفي طليعتهم مشوهو الحروب والعاطلون عن العمل، تركوا بيوتهم ومدارسهم ومزارعهم ومصانعهم متحدين الإنذارات الموجهة إليهم بالفصل عن عملهم، وجاؤوا للاجتماع إلى سيد من سادة الرفض والتنظير في هذه المرحلة العصيبة التي تمر بها أمتهم وشعوبهم وأوطانهم. وكل منهم يحمل في صدره من مرارات الماضي بقدر ما يحمل من الآمال في المستقبل، لعله يسمع كلمة صدق واحدة تعيد له ثقته بنفسه، وتنير له طريق العمل والكفاح وسط هذا الغيهب الإعلامي المترامي من المحيط إلى الخليج.

وما أن وصل المحاضر حتى هب الجميع من مقاعدهم ودوت أركان القاعة بالتصفيق وصيحات التهليل بالكلمة المحاربة والفكر المقاتل، ورفضوا الجلوس إكباراً لعلمه واحتراماً لماضيه وكبر سنه.

كذلك عندما تقدم عريف الحفلة من المحاضر ودعاه للجلوس وراء المنبر، رفض هو الآخر بدوره الجلوس وهم واقفون. كما رفض الوقوف وهم جالسون. وعندما اقترب منه ليهمس في أذنه بشيء ما، رفض الإصغاء إليه ودفعه بعيداً عنه وقال: لا أسرار صغيرة أو كبيرة بعد اليوم تخفى عن الشعوب. ويجب مصارحتها بكل شيء لتعرف من هو عدوها ومن هو حليفها. كما أرفض أن يقاطعني أحد وأنا ألقي محاضرتي، لأن الرفض يجري في دمي، وفي عروقي وأوردتي وشراييني، ومن رأسي إلى أخمص قدمي، وها هي الصور الشعاعية والتقارير الطبية تؤكد لكم على ذلك.

العريف: هناك سؤال يدور على ألسنة المثقفين...
المحاضر: أعرفه، أعرفه تماماً، إنني في جميع أقوالي ومؤلفاتي أرفض جميع الحلول السلمية، وقرارات الأمم المتحدة، ومجلس الأمن وتوصيات القمم العربية والإسلامية وعدم الانحياز، وأرفض حدود **1967**، وحدود **1956**، وحدود **1948**، لأنها في النهاية تكريس لوجود إسرائيل كمخلب قط للاستعمار وعلى رأسه أمريكا وحلفاؤها في المنطقة.

العريف: وهناك سؤال آخر حول ...
المحاضر: لا تقاطعني، كما أنني أرفض الوضع العربي الراهن وأرفض الأسس التي يقوم عليها من خلافات ومصالحات، وتصفيات واتفاقات، ومعاهدات لا علاقة بها بالشعوب وأهداف الشعوب. إن هذا ما يريده أعداء هذه الأمة، وعلى رأسهم أميركا وحلفاؤها في حلف شمال الأطلسي. إنني أختنق. إنني أختنق من رائحة التآمر والمؤامرات.
العريف: افتحوا الشبابيك...
المحاضر:لا، إنني أرفض التهوية، وهناك ملايين العمال والفلاحين والمناضلين محرومون من النور والهواء في أعماق السجون والمناجم وآبار النفط في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، آه إنني بردان.
العريف: أشعلوا المدفأة.

المحاضر: لا، إنني أرفض التدفئة وهناك ملايين الرعاة والبحارة والصيادين يكدحون تحت الثلج والصقيع في المزارع والمعامل والمصانع، في خدمة البرجوازية والاحتكارات العالمية. لا، لا تصفقوا أرجوكم، ادخروا راحات أيديكم لحمل السلاح. لحمل العصي والحجارة. لضرب المصالح والاحتكارات الأمريكية في آسيا وفي أفريقيا وفي أمريكا اللاتينية، وفي كل مكان من العالم، وشكراً لإصغائكم.

العريف: عفواً أستاذ، إن الحضور لا زال متشوقاً للمزيد من هذه الدرر ويريد أن يعرف المزيد من الفظائع التي ارتكبتها أمريكا في فيتنام وكمبوديا ولاوس وتشيلي والسلفادور، لأننا نمر في نفس الظروف التي مرت وتمر بها.

المحاضر: آسف، فعندي التزامات بمحاضرات كثيرة في معظم أرجاء العالم الثالث والالتزام شعاري، كما هو معروف. وعلينا جميعاً أن نوقف المؤامرة، وننقذ الأجيال الطالعة مما تخبئه لها أمريكا من مخططات ومكائد.

العريف: رجاء أستاذ، هناك سؤال من أحد المستمعين.

المحاضر: ما اسمه؟

العريف: جابر.

المحاضر: أرفض الإجابة على أي سؤال منه لأن اسمه يبتدئ بنفس الحرف الذي يبتدئ به اسم جيمي كارتر وجيرالد فورد وجورج واشنطن...

العريف: هناك سؤال آخر من إحدى فتياتنا المشتعلات حماساً لك ولمؤلفاتك، ويتعلق بدور المرأة العربية في هذه المرحلة ...

المحاضر: وما اسم صاحبة السؤال؟

العريف: نعيمة.

المحاضر: أرفض حتى الجلوس معها في مكان واحد لأن اسمها يبتدئ بنفس الحرف الذي يبتدئ به اسم المدمرة نيوجرسي... على كل حال، لم تعد الشعوب بحاجة إلى أسئلة وأجوبة. فكل شيء بات واضحاً أمامها الآن. ولا عدو لها سوى أمريكا وحلفائها في العالم أجمع وإلى اللقاء على أشلائهم جميعاً.

وبعد أن غادر القاعة وهو يمسح العرق عن جبينه، والرذاذ عن شفتيه، لحق به متسول في الظلام...

المتسول: حسنه لله يا محسنين...

المحاضر: هل معك صرافة مئة دولار؟

ستار